(أصل هذه المادة دروس صوتية ألقاها الشيخ في مدينة الخرمة)

كِتَابُ الفِتَنِ

(المقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، ثم أما بعد، فبين يدي هذا اللقاء –الذي يُعد الأوّل من لقاءات مدارسة كتاب الفتن من صحيح البخاري– يحسن بنا أن نجيب إجابات مختصرة على بعض الأسئلة كمقدمة لهذه الدروس التي نسأل الله تعالى أن يبارك لنا فيها ويوفقنا لمواصلتها.

السؤال الأول: لماذا هذا الدرس؟ والجواب باختصار هو فيما يلي:

١- لحاجتنا الماسّة إلى رفع الجهالة عن أنفسنا أولا وعن الآخرين ثانيا.

٢- التقرب إلى الله تعالى بهذه العبادة، فالعلم الشرعي من أجلّ العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ)).(١)

٣- الفقه في دين الله تعالى ، فمن دلائل إرادة الله الخير بالعبد توفيقه له حتى يتفقه في دينه، قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[البقرة:٢٦٩] قَالَ مَالِكٌ: "وَإِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي، أَنَّ الحكمة هو الْفِقْهُ فِي دِيْنِ اللَّهِ وَأَمْرٌ يُدْخِلُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢٦٨ (١/ ٢٣٩) قال ابن عبد البر رحمه الله: هَكَذَا حَدَّثَنِيهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عُبَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مَرْفُوعًا بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ جِدًّا وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ قَوِيٌّ.

مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ"**(٢)** وأصرح من ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم: ((من يرد الله به خيرا يفقه في الدين)) **(٣)**.

٤- العصمة من الفتن، العامة والخاصة، الظاهرة والباطنة، ويكفينا في ذلك ما رواه علي رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ)). فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((كِتَابُ اللَّهِ)) **(٤)** فالفقه في دين الله والاشتغال به ومذاكرته والعمل به هو العاصم بإذن الله من الفتن ظاهرها وباطنها.

٥- إحياء القلوب من غفلتها ورقدتها، وإنارة السبيل بالوحي الرباني الذي يحيي الله به القلوب كما يحيي الأرض بالغيث ، وقد أمرنا تعالى بالاستجابة للوحي المحيي للقلوب فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤]** وقال تعالى: **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:١٢٢]** فهذه الآيات وغيرها تدعونا إلى مثل هذه المجالس التي تعقد لذكر الله ومذاكرة وحيه تعالى.

---

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٧٠٠)

(٣) رواه البخاري- كتاب العلم -بَابٌ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ٧١ (١/ ٢٥) ومسلم- كتاب الزكاة – بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ١٠٣٧ (٢/ ٧١٨).

(٤) رواه الترمذي –كتاب أَبْوَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ ٢٩٠٦ (٥/ ١٧٣).

السؤال الثاني: لماذا اخترنا مدارسة هذا الفن من بين سائر الفنون؟ **والجواب** : لأن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وحي من الله تعالى ، وقد قال الله تعالى عن نبيه: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم:٣-٤] وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التفريق بين كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، فقال صلى الله عليه وسلم: ((لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ)) (٥)ويقول صلى الله عليه وسلم: ((اوتيت القرآن ومثله معه)) (٦) فالسنة هي التطبيق العملي والبيان للقرآن الكريم ، قال مطرف بن عبد الله لمن قال لا تعلمونا إلا القرآن: " إنا والله لا نبتغي بالقرآن بديلا ولكن نتعلم ممن هو أعرف منا بالقرآن".(٧) ثم إن مدارسة السنة من مدارسة القرآن وقد ندبنا الله إلى مدارسته كما في قوله تعالى: ﴿**. . وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران:٧٩].

السؤال الثالث: لماذا اخترنا من بين كتب السنة صحيح البخاري؟ والجواب باختصار: لأنه أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى، وقد انتخبه مصنفه من ست مائة ألف حديث في ستة عشرة سنة على ألف وثمانين شيخا، وما كان يثبت فيه حديثا إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين.

---

(٥) رواه (بهذا اللفظ) ابن ماجه- بَابُ تَعْظِيمِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ عَارَضَهُ ١٣ (١/ ٦) وأبو داود- كتاب السنة-بَابٌ فِي لُزُومِ السُّنَّةِ ٤٦٠٥ (٤/ ٢٠٠)

(٦) أخرجه أحمد في المسند ١٧١٧٤(٢٨/ ٤١٠)

(٧) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٩٣).

السؤال الرابع: لماذا كتاب الفتن خاصة ؟ والجواب لأننا سبق أن درسنا في هذا المسجد المبارك كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة وكتاب الرقاق من صحيح البخاري فناسب أن نستكمل هذه السلسلة بهذا الكتاب ؛ وذلك لأننا نعيش آخر الزمان كما أخبر به الله تعالى في كتابه عند قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾**[القمر:١]** وقوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**﴾ **[الأنبياء:١]**وقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾**[النازعات:٤٢]** ومعلوم أن آخر الزمان تكثر فيه الفتن، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ((إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ: أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا)) **(٨)**وها نحن اليوم نرى ونسمع ونعيش تلك الفتن التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم مما يحتّم علينا بذل الأسباب للتفقه في أحكام الفتن بغية الحذر والسلامة منها قبل وقوعها، ومعرفة العلاج وسبل النجاة لمن لحقه دخنها وغبارها.

ترجمة المؤلّف:

قال سفيان بن عيينة: " عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة"**(٩)** وقال محمد بن يونس: " ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين".**(١٠)** ولا يشك شاك في أن أبا عبدالله من جملة اولئك الصالحين الذين تتزين المجالس بذكر سيرهم –رحمه الله وجمعنا به في دار كرامته–.

---

(٨) صحيح البخاري– كتاب المناقب–بَابُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ ٣٦٠١ (٤/ ١٩٩) صحيح مسلم–كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ –بَابُ نُزُولِ الْفِتَنِ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ ٢٨٨٦ (٤/ ٢٢١١)

(٩) معجم ابن المقرئ ١٤٢ (ص: ٧٥).

(١٠) صفة الصفوة (١/ ١٨).

وهو: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ولد بعد صلاة الجمعة لثلاث عشر خلت من شهر شوال سنة١٩٤هـ في بخارى.

وتوفي رحمه الله بعد صلاة العشاء من ليلة عيد الفطر، ودفن بعد العيد يوم الظهر سنة٢٥٦هـ بسمرقند، وعمره ٦٢سنة.

مات أبوه وهو صغير، وتولت أمه تربيته، وحُبّب إليه طلب العلم وهو صغير، وأعانه عليه فرط ذكائه وعلو همته وقوة حفظه، فقد ذُكر عنه أنه ينظر في الكتاب فيحفظه من نظرة واحدة.

بدأ سماع الحديث في وقت مبكر وتحديدا في العاشرة من عمره ثم رحل مع أمه وأخيه إلى مكة حاجا ثم رجعت أمه وأخوه وبقي يطلب الحديث فأقام بالحجاز ستة أعوام، وتنقّل في البلاد يطلب العلم حتى قال:"كتبت عن ألف وثمانين نفسا وأكثرها بين البصرة ومكة".(**١١**)

يقول ابن خزيمة: " ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحفظ له من البخاري".(**١٢**)

ويقول الحافظ صالح بن محمد جزرة: "كان البخاري يجلس في بغداد وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفا".(**١٣**)

---

(١١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٥)

(١٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣١)

(١٣) تاريخ بغداد (٢/ ٣٤٠)

من ورعه رحمه الله ، يقول: " ما اغتبت أحدا منذ علمت أن الغيبة حرام"قال الذهبي معلقا على هذا الكلام:" صدق رحمه الله ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس وإنصافه في من يضعفه فَإِنَّهُ أَكْثَر مَا يَقُوْلُ: مُنْكَرُ الحَدِيْثِ سَكَتُوا عَنْهُ فِيْهِ نظرٌ وَنَحْو هَذَا، وَقَلَّ أَنْ يَقُوْلَ: فلان كَذَّابٌ أَوْ كَانَ يَضَعُ الحَدِيْثَ حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: إِذَا قُلْتُ فُلاَنٌ فِي حَدِيْثِهِ نَظَرٌ فَهُوَ مُتَّهَمٌ، وَاهٍ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: لاَ يُحَاسبُنِي اللهُ أَنِّي اغتبْتُ أَحَداً، وَهَذَا هُوَ وَاللهِ غَايَةُ الوَرَعِ. **(١٤)**

من اجتهاده يقول عنه وراقه: " نكون في السفر فيجمعون الحديث فكان يقوم في الليلة الواحدة أكثر من عشرين مرة يأخذ القداحة فيوري نارا بيده ويسرج".**(١٥)**

مؤلفاته:

ألّف البخاري نحو عشرين عنوانا، منها: الأدب المفرد، أسامي الصحابة، كتاب الأشربة، بر الوالدين، التاريخ الكبير والأوسط والصغير، التفسير الكبير، خلق أفعال العباد، القراءة خلف الإمام، رفع اليدين، الضعفاء والمتروكون، علل الحديث، الفوائد، الكنى، الجامع الصحيح.

محنته:

رمي رحمه الله بالكفر والبدعة من بعض مشايخه وحاسديه بسبب مسألة: "اللفظ" لما رجع إلى نيسابور، وكانوا يحذرون منه ومن مجالسه، ويوشون به إلى الولاة فيخرجونه ويمنعونه من التدريس، وكان الواشون يتابعونه حيث حلّ، حتى أنه كان يقول في دعائه: " اللهم قد ضاقت بي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك" فما لبث شهرا حتى توفاه الله .

(١٤) سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٠/ ١٠٤).

(١٥) تاريخ بغداد (٢/ ٣٣٢).

صحيح البخاري:

ألّف البخاري رحمه الله صحيحه ، وسماه: (**الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**) وهو مصنف ضمن ما يعرف بالجوامع، وهي التي تجمع أبواب الدين كلها، كما يصنف في السنن وهي التي تجمع الأحكام، وفي المصنفات التي تجمع الآثار مع الأحاديث.

سبب تأليفه:

يقول البخاري رحمه الله: "كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا: "لو جمعتم كتابا مختصرا في الصحيح لسنن النبي صلى الله عليه وسلم، فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب".(١٦)

وقال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وكأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب عنه، فسألت بعض المعبّرين، فقال لي: أنت تذبُّ عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الصحيح".(١٧)

كيفية تصنيفه:

قال رحمه الله: " صنفت كتاب الصحيح لست عشرة سنة، خرّجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة بيني وبين الله".(١٨)

---

(١٦) تاريخ بغداد (٢/ ٣٢٧).

(١٧) تغليق التعليق (٥/ ٤٢٠).

(١٨) تغليق التعليق (٥/ ٤٢١).

صنفه في مكة والمدينة والبصرة وبخارى، وقال : " ما وضعت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، واستخرت الله عز وجل".(**١٩**)

رواته:

سمعه منه ورواه عنه ما لا يقل عن تسعين ألف راو.

شروح صحيح البخاري:

شرَح صحيح البخاري أكثر من اثنين وثمانين شارحا بين مختصِر ومطوِّل، وأفضل تلك الشروحات "فتح الباري" لابن حجر ، رحمه الله.

أحاديث صحيح البخاري:

ذكر النووي رحمه الله أن عدد أحاديث الصحيح سبعة آلاف ومئتان وسبعة وخمسون حديثا، ووصلت في الترقيم المعاصر إلى سبعة آلاف وخمسمائة وثلاثة وستين حديثا مع التكرار، وبحذف المكرر قرابة أربعة آلاف حديث.

قسمه رحمه الله إلى سبعة وتسعين بابا، بدأ ببدء الوحي، ثم الإيمان، ثم العلم، وختمه بالاعتصام ثم كتاب التوحيد.

وأول حديث في صحيح البخاري هو حديث ((إنما الأعمال بالنيات)) وكأنه ينوه إلى ضرورة إخلاص النية وآخر حديث فيه: ((كلمتان خفيفتان على اللسان..)) وكأنه يسأل الله تعالى أن يختم له بالتوحيد.

(١٩) المصدر السابق.

كتاب الفتن:

يُعدّ كتاب الفتن من أواخر الكتب في هذا صحيح البخاري ، وتحته تسعة وعشرون بابا،

أولها: بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥] وَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَذِّرُ مِنَ الفِتَنِ.

وذكر تحت هذا الباب ثلاثة أحاديث، كلها بمعنى واحد:

الأول: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((أَنَا عَلَى حَوْضِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ، فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي، فَيُقَالُ: لاَ تَدْرِي، مَشَوْا عَلَى القَهْقَرَى)) قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا، أَوْ نُفْتَنَ".

الثاني: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، لَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ، حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي، يَقُولُ: لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)).

الثالث: عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: ((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ)) قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، – وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا – أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ((إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي)).

وهنا بعض الوقفات حول هذه الترجمة وهذه الأحاديث:

الأولى: معنى الفتنة، فالفتنة ذكرت في القرآن في ثمانية وخمسين موضعا، كما ذكرت في السنة أيضا مرات كثيرة، ولها معان مختلفة بحسب سياقاتها، وقد جاءت في القرآن على خمسة عشر معنى ولسنا بحاجة أن نقف عندها كثيرا وحسبنا قول الحافظ ابن حجر رحمه الله: "أَصْلُ الْفِتْنَةِ الِاخْتِبَارُ ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ فِيمَا أَخْرَجَتْهُ الْمِحْنَةُ وَالِاخْتِبَارُ إِلَى الْمَكْرُوهِ ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى كُلِّ مَكْرُوهٍ أَوْ آيِلٍ إِلَيْهِ كَالْكُفْرِ وَالْإِثْمِ وَالتَّحْرِيقِ وَالْفَضِيحَةِ وَالْفُجُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ"**(٢٠)** وهناك فرق بين الفتنة والابتلاء فهو أحد معاني الفتنة وهي أعم ، يقول أبوهلال العسكري في الفروق "الْفِتْنَة أشد الاختبار وأبلغه وَأَصله عرض الذَّهَب على النَّار لتبين صَلَاحه من فَسَاده وَمِنْه قَوْله تَعَالَى (يَوْم هم على النَّار يفتنون) وَيكون فِي الْخَيْر وَالشَّر أَلا تسمع قَوْله تَعَالَى (إِنَّمَا أَمْوَالكُم وَأَوْلَادكُمْ فتنه) وَقَالَ تَعَالَى (لأسقيناهم مَاء غدقا لنفتنهم فِيهِ) فَجعل النِّعْمَة فتْنَة لِأَنَّهُ قصد بهَا الْمُبَالغَة فِي اختبار الْمُنعم عَلَيْهِ بهَا كالذهب إِذا أُرِيد الْمُبَالغَة فِي تعرف حَاله أَدخل النَّار وَالله تَعَالَى لَا يخْتَبر العَبْد لتغيير حَاله فِي الْخَيْر وَالشَّر وَإِنَّمَا المرَاد بذلك شدَّة التَّكْلِيف"(٢١) فالعلاقة بين المعنى الشرعي واللغوي للفتنة تكمن في أن الفتنة تظهر المؤمن الصادق من المنافق الكاذب الذي لم يلامس الإيمان قلبه، وتنقي قلب المؤمن كما يُنَقّى الذهب فيذهب الخبث ويبقى النقاء.

والخلاصة أن الفتنة تأتي في القرآن الكريم بمعان كثيرة منها: الابتلاء بالمعاصي؛ ليتبين المطيع من العاصي؛ كما في قوله تعالى :﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(٢٠) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣).

(٢١) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢١٧)

ومنها: الابتلاء بالمباحات والنعم؛ كما في قوله تعالى :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ومنها: الابتلاء بمصائب الدنيا؛ ليعلم الصابر على أقدار الله من الساخط؛ كما في قوله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١] إلى غير ذلك من المعاني.

أما في السنة فإنها تأتي أيضا بمعان كثيرة أهمها: الاقتتال بين المسلمين ووقوع البأس بين الأمة سواء كان ذلك بسبب التنافس على الملك أم لا، كما يراد بها في السنة وقوع الفرقة والاختلاف والخروج على الطاعة، وغير ذلك من المعاني التي لا تتحدد إلا بالسياقات والقرائن .

الوقفة الثانية: هذه الترجمة تشير إلى التحذير القرآني من الفتن، وقد أورد المصنف آية الترجمة تأكيدا على ذلك، ونحو آية الترجمة قوله تعالى: **﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[المائدة:٤٩]** فهذا تحذير للنبي صلى الله عليه وسلم من الفتنة، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يفتتن عن الحق؛ مما يوحي إلى أن الأمة هي المقصودة بهذا الخطاب، كذلك قول الله تعالى: **﴿ . .فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾[النور:٦٣]**فمخالفة أمر الله وأمر الرسول خطر عظيم، وهذه الآية هي التي وعاها أبوبكر حين قال: "لستُ تاركاً شيئاً كان رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلم – يَعملُ به إلا عَمِلْتُ به إني أخشى إن تركتُ شيئاً من أمرِه أن

أَزيغَ"**(٢٢)** ونحو ذلك ما ورد عن مالك حين أتاه رجل – فقال : يا أبا عبد الله، من أين أحرم؟ قال : من ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله ، فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال : لا تفعل. قال : إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال : لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة. قال : وأيّ فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: وأيّ فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله! صلى الله عليه وسلم إني سمعت الله يقول : ﴿ . .فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾[النور:٦٣]. (٢٣)

الوقفة الثالثة: آية الترجمة تشير إلى أحد نوعي الفتن، فالفتن على نوعين:

١- فتن خاصة ، وهي التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بفتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، وهذه تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي ما ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيم﴾[التغابن:١٥] ونحوها: فتنة النساء ، وفتنة الغنى والفقر، وفتنة المحيى والممات، وفتنة الصدر وهو الوسواس، وفتنة النار.

٢- الفتن العامة، وهي التي تعم الصالح والطالح، الذكر والأنثى، الكبير والصغير، وهي المقصودة في آية الترجمة، وقد جاء وصف هذه الفتنة في الأحاديث النبوية، ومن أوصافها أنها تموج كموج البحر، ومنها ما هو كقطع الليل المظلم، والتي تأتي كالظل، والتي لا تدع بيتا إلا دخلته، ومنها الصماء البكماء العمياء، وقال صلى الله عليه

---

(٢٢) رواه البخاري–كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ–٣٠٩٣ (٤/ ٧٩) ومسلم–كتاب الجهاد والسير–بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»١٧٥٩ (٣/ ١٣٨١).

(٢٣) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٢٦٢).

وسلم: ((ومنهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئا، ومنهن فتن كرياح الصيف، منها صغار ومنها كبار)) (٢٤) وأول هذه الفتن هو ما حصل بين الصحابة من الاقتتال ومن بعدهم بين المسلمين إلى ساعتنا هذه، وإلى أن يقاتل المؤمنون الدجال مع عيسى عليه السلام، وفتنة الاقتتال بين المسلمين هي التي سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه ألا تكون فمنعه إياها، ففي حديث مسلم: ((سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا)) (٢٥)

وقد أشار الله تعالى إلى هذا النوع من الفتنة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُون﴾[الأنعام:٦٥]

ومن هذا النوع من الفتن : فتنة البدع والخرافات في الأقطار الإسلامية، وفتنة تسلط الأعداء على المسلمين وإراقة دمائهم واستحلال حرماتهم وأعراضهم، وفتنة الذلة والهوان التي أصابت المسلمين، وفتنة التغريب والعلمنة والدعوة إلى الأفكار الهدامة كالليبرالية ونحوها.

.....

الوقفة الرابعة: تفسير آية الترجمة:

(٢٤) رواه مسلم-كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ-بَابُ إِخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ٢٨٩١ (٤/ ٢٢١٦).

(٢٥) صحيح مسلم- كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ-بَابُ إِخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ٢٨٩٠ (٤/ ٢٢١٦).

ذكر الله هذه الآية بعد أن أمر بالاعتصام بالكتاب والسنة وأشار إلى أن الحياة الحقيقية هي في الاستجابة لله وللرسول وأن من حاد عن ذلك وقصّر فيه فإنه مغبون فقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ*وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥]وفي تفسير قوله تعالى: (واتقوا فتنة ...) يقول مطرف بن عبد الله الشخير: قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ضَيَّعْتُمُ الْخَلِيفَةَ الَّذِي قُتِلَ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بِدَمِهِ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ"(٢٦) وهذا تفسير بالمثال، وإلا فمن معانيها أيضا ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: "أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب" في إشارة منه رضي الله عنه إلى حديث عدي بن عميرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ)). **(٢٧)** فهذه الآية كما ذكرنا تشير إلى نوعي الفتن ، العامة والخاصة، وقول البخاري رحمه الله " وما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من الفتن" تأكيد على أن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا حذر من الفتن كما حذر الله منها في آية الترجمة، ومن صور ذلك التحذير ما ورد في هذه الأحاديث التي نتدارسها، ففيها أن أقواما من أمته يُمنعون من ورود حوضه عليه الصلاة والسلام بسبب ما أحدثوا ، فمن أكبر

(٢٦) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣١) وقال الأرناؤوط: إسناده جيد.

(٢٧) أخرجه أحمد في المسند (٢٩/ ٢٥٨) وحسن الحافظ ابن حجر إسناده.

أنواع الفتن هو الابتداع في دين الله عز وجل والإحداث فيه فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) (٢٨)

ومن صور تلك الفتن التي حذرنا منها ما ورد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ)) رواه مسلم. (٢٩) وفيه المخرج من الفتن .

ومن صور التحذير ما جاء في مشروعية الدعاء والتعوذ من الفتن، فقد شرع الله لنا في كل صلاة أن نستعيذ من الفتن ، ففي الحديث ((إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال))رواه مسلم. (٣٠)

وجاء في حديث ابن عباس عند الترمذي وغيره أن جبريل قال : ((يا محمد إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَإِذَا

(٢٨) رواه البخاري- كتاب الصلح-بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ- ٢٦٩٧ (٣/ ١٨٤) ومسلم- كتاب الأقضية-بَابُ نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ- ١٧١٨ (٣/ ١٣٤٣).

(٢٩) صحيح مسلم- كتاب الإمارة- بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ- ١٨٤٤ (٣/ ١٤٧٢).

(٣٠) صحيح مسلم- كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ - بَابُ مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي الصَّلَاةِ ٥٨٨ (١/ ٤١٢).

أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)) (٣١) وسيأتي في باب "التعوذ من الفتن" عند البخاري.

ومن صور التحذير الإخبار عما سيقع منها بين الصحابة على سبيل التحذير، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ((هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ)) **(٣٢)**
قال النووي: "والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم".
لكن، رغم أن الفتن من قدر الله الكوني الواقع لا محالة مع تحذير الله ورسوله منها كلها بما في ذلك فتنة الدجال الذي حذر النبي منه ، فرغم ذلك كله يجب علينا أن نعتقد بأن الله تعالى الحكيم الخبير لا يقدّر شرا محضا بل أي فتنة لابد وأن وراءها حكما لله سبحانه وتعالى ومنحا عظيمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، ولعل أبرز الحكم الإلهية من هذه الفتن ما يلي:-

١- تمايز الصفوف ومعرفة الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿الم*أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]فالناس لا يُتركون بمجرد التصريح بإيمانهم بل لا بد من امتحانهم بأنواع الفتن والابتلاءات ليُعلم المؤمن الحقيقي من المنافق المخادع، وفي هذا يقول ابن القيم : " فَلْيَتَأَمَّلِ الْعَبْدُ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْعِبَرِ وَكُنُوزِ الْحِكَمِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمِ الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: آمَنَّا، وَإِمَّا أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ، فَمَنْ قَالَ: آمَنَّا امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ

(٣١) سنن الترمذي -أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ ص ٣٢٣٣ (٥/ ٣٦٧).

(٣٢)رواه أحمد في المسند (٣٦/ ٧٨) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وَفَتَنَهُ، وَالْفِتْنَةُ الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلَا يَحْسِبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللَّهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَطْوِي الْمَرَاحِلَ فِي يَدَيْهِ".(٣٣) لذلك قال الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . . . ﴾[آل عمران:١٧٩] فالتمييز لا يكون إلا بعد افتتان واختبار، وقد قال الحسن البصري " إِنَّكَ لَتَعْرِفُ النَّاسَ مَا كَانُوا فِي عَافِيَةٍ فَإِذَا نَزَلَ بَلَاءٌ صَارَ النَّاسُ إِلَى حَقَائِقِهِمْ صَارَ الْمُؤْمِنُ إِلَى إِيمَانِهِ وَالْمُنَافِقُ إِلَى نِفَاقِهِ "(٣٤) فهذه حكمة لله في خلقه ، وهو الذي زين أرضه بمخلوقاته ليعلم من يريده ومن يرغب عنه وأراد الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِين ﴾[هود:٧] وقال تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الكهف:٧]ويقول تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور ﴾[الملك:٢] .

ومن الأمثلة التي حصل فيها الابتلاء قصة تحويل القبلة ،فقد أخبرنا الله تعالى عنها بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ

(٣٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٣).

(٣٤) الزهد لأحمد بن حنبل -١٦٦٠(ص: ٢٣٣).

اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيم﴾ [البقرة:١٤٣] فهذا اختبار عظيم لا يسلم منه إلا من تمكّن الإيمان من قلبه، وقد كانت فتنة لبعضهم والعياذ بالله فقالوا إن صلاتنا السابقة كلها باطلة لأنها كانت إلى غير القبلة، لذلك قال الله تعالى: **﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ﴾** ورد عليهم بقوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾**.

٢-من حكم الفتن فضح المنافقين وكشف أسرارهم، فعند الفتن يظهر المنافق على حقيقته ويبدي ما كان يخفيه من العداوة والضغينة، وقد فضح الله المنافقين في أحد حين رجعوا بثلث الجيش عند اشتداد الأمر، وكذلك في الأحزاب وغيرها وقد نزلت سورة التوبة لتفضح هؤلاء الذين قال الله فيهم: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ*يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ*فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** [البقرة:٨-١٠] فالمنافقون يتخلون عن الأمة في أحلك أحوالها كما فعلوا في ساعة العسرة التي تركوا فيها المسلمين وهم أشد ما يكونون حاجة إلى العون ورص الصف، لكن الله سبحانه أخبر نبيه بأن عدم خروجهم مع المسلمين خير للمسلمين فقال تعالى: **﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** [التوبة:٤٧]وقد أخبر الله عنهم أنهم أسعى الناس إلى الفتن وتأجيجها لارتباطهم بالعدو الخارجي دائما وقد أشار الله تعالى إلى ذلك الارتباط الوثيق بقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** [الحشر:١١] فهم يتلقون من خارج

الحدود كما هو حاصل اليوم، ويقول الله تعالى عنهم ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾[الأحزاب:١٤]فالخلاصة أن الفتن والشدائد هي الممحصة المظهرة للصادق من الكاذب فتزيد المؤمن إيمانا ويقينا وثباتا والمنافق شكا وارتيابا وهلاكا، يقول الشاعر:

جزى الله الشدائد كل خير *** وإن هي جرعت غصص الرفيق

وما شكري لها إلا لأني *** عرفت بها عدوي من صديقي

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ، لَا تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ" رواه مسلم(٣٥) قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء﴾[إبراهيم:٢٧].

٣-من هذه الحكم والدروس امتحان الخلق واختبار عبوديتهم لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت:١٠] يقول ابن عباس: فتنته هنا أن يرتد عن دين الله ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين﴾[الحج:١١]وقال تعالى: ﴿ . . وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[الفرقان:٢٠]يقول

(٣٥) صحيح مسلم-كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ-بَابُ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالزَّرْعِ وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَشَجَرِ الْأَرْزِ ٢٨٠٩ (٤/ ٢١٦٣).

ابن القيم رحمه الله: "وهذا عام فى جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض، فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم. وتحمل المشاق فى تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟ وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار ولكفار بالمؤمنين. وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: {لَوْ كانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إلَيْهِ} [الأحقاف: ١١] هؤلاء." **(٣٦)**

٤- ومن حكم الله في هذه الفتن ابتلاء المؤمنين خاصة بالخير والشر، قال تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]**وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥]** يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:"ابْتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فَلَمْ نَصْبِرْ"**(٣٧)** فرغد العيش والأمن سبب لافتتان كثير من الناس والعياذ بالله، كما أن قسوة الحياة

(٣٦) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٦١).

(٣٧) سنن الترمذي - ٢٤٦٤ (٤/ ٢٢٣).

قد تكون سببا في عودة بعض الناس إلى الله وقربه منه تعالى ، وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله: "فالله سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في تلك الحالتين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم قلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب وأضدادها تلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه".(٣٨)

٥-من هذه الثمرات الربانية أعاذنا الله وإياكم من مضلاتها، تقوية الإيمان في قلوب المؤمنين وتثبيتهم، فالفتن فيها تقوية لقلوب المؤمنين وتثبيتا لهم على دين الله -ﷻ- فمع أن الفتن لها أثر خطير في اهتزاز القلوب واختبار المواقف إلا أنها تزيد في إيمان المؤمنين، وتزيد في ثبات أقدامهم وقلوبهم، ويدل على هذا ما ذكره الله -ﷻ- لما امتحن المؤمنين في الأحزاب، فقال الله -ﷻ-: ﴿ **قَالُوا هَذَا مَا وعَدَنَا اللَّهُ ورَسُولُهُ وصَدَقَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ومَا زَادَهُمْ إلاَّ إيمَانًا وتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وكذلك في يوم حمراء الأسد لما استجاب المؤمنون لنداء الجهاد مع ما أصابهم من الجراح والآلام بعد معركة أحد، أنزل الله فيهم قرآنا يُتلى يصف حالهم مع ذلك الامتحان والابتلاء فقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ واتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ** ﴾ [آل عمران ١٧٣:١٧٢] خوفوهم من مجيء الأحزاب عليهم، وكثرة العذاب عليهم ، فجعل الله ذلك التخويف تثبيتًا وقوة وثباتًا في قلوبهم، قال تعالى:

(٣٨) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٩٠).

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران ١٧٣: ١٧٤] ، فتأمل قوة الابتلاء والاختبار وتأمل في مقابل ذلك ثمرات الثبات والنجاح أي النجاح في وترتب على ذلك ٨:٠٢ ومنها ما ذكره الله -ﷻ- في كتابه العزيز في قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ويَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ولا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والْمُؤْمِنُونَ ولِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ [المدثر:٣١]، والله -ﷻ- بعد ذلك قال: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ويَهْدِي مَن يَشَاءُ ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ومَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٣١]، هذه الأدلة تدل على أن من ثمرات الابتلاءات والفتن العامة للمسلمين والخاصة تقوية الإيمان في قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم.

٦-من هذه ثمرات الفتن أيضًا تبيين الحق للسالكين وتميزه لهم، فقد خلت سنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لأهل الحق، وتظلمه على أهل الباطل يقول الشيخ محمد رشيد رحمه الله- : " وقد خلت سنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لأهل الحق ، وترخي سدول ظلمته على أهل الباطل ، وتمحص المؤمنين ، وتمحق الكافرين،كل إنسان يرى نفسه على الحق في الجملة ، ولكن التمكن في المعرفة والثبات على الحق لا يعرف في الغالب إلا إذا وجد للمحق خصم ينازعه ويعارضه في الحق ، هنالك تتوجه قواه إلى تأييد حقه وتمكينه ، ويحس بحاجته إلى المناضلة دونه والثبات عليه ، وكثيرا ما يظهر الباطل الحق بعد خفائه ; فإن المعارضة في الحق تحمل صاحبه على تنقيحه

وتحريره وتنقيته مما عساه يلتصق به أو يجاوره من غواشي الباطل ، وتجعل علمه به مفصلا بعد أن كان مجملا ، ومبرهنا عليه بعد أن كان مسلما ، فهي مدرجة الكمال لأهل اليقين"(**٣٩**) فهذا كلام في غاية الأهمية؛ لأن الإنسان يرى نفسه على الحق ويستمر في ذلك، فإذا وجد من يخاصمه وينازعه فإنه يضطر إلى الرجوع إلى الأئمة، والنظر في كلامهم والتشبث به فيكون ذلك طريقه ومنهجه، فيسلم بإذن الله.

أيضًا من حكم الفتن البينة الظاهرة: (العظة والاعتبار)، فإن من ثمرات الفتن الاعتبار بحال من وقعوا فيها واكتووا بنارها؛ لأن السعيد من وعظ بغيره ، وفي هذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله: " **وذلك أن الفتن إنما يعرف ما فيها من الشر إذا أدبرت فأما إذا أقبلت فإنها تزين ويظن أن فيها خيرا فإذا ذاق الناس ما فيها من الشر والمرارة والبلاء صار ذلك مبينا لهم مضرتها وواعظا لهم أن يعودوا في مثلها**"إلى أن قال: "ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين تبين له أنه ما دخل فيها أحد فحمد عاقبة دخوله لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه ولهذا كانت من باب المنهي عنه والإمساك عنها من المأمور به الذي قال الله فيه﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣]". (**٤٠**) ثم في هذا إرشاد لمن وقعوا في شيء منها أن يعودوا إلى الله تعالى بالرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل، وقد أشار الحق -ﷻ- في كتابه العزيز إلى هذه القضية في قوله -ﷻ-: ﴿ **أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [التوبة:١٢٦] فهذه الفتن فيها عظة للمفتون فتكون سببا في رجوعه وأوبته وتوبته إلى الله -ﷻ- وقد أخبر الله في هذه الآية عن حال المنافقين مع الفتن فذكر أن مع هذا البلاء الذي يحل به من الله، والاختبار الذي يأتي لهم، لا يتوبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ.

---

(٣٩) تفسير المنار (٢/ ٢٢)

(٤٠) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤١٠).

٧-من هذه الثمرات والحكم من هذه الابتلاءات والفتن (المغفرة والرحمة لمن فتن)؛ ولهذا قال الله -ﷻ-: ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ١١٠]، وقال -ﷻ-: ﴿ **وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ويَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ واللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، ولِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ويَمْحَقَ الكَافِرِينَ** ﴾ [النحل: ١٤٠-١٤١] ، فهذه الآيات تضمنت جملة من ثمرات الفتن، أولهاقوله تعالى : [وليعلم الله الذين آمنوا]، أي يظهر الله -ﷻ- علمه عيانًا فيُرى لكل ناظر. ثانيها: [ويتخذ منكم شهداء] في مثل هذه الفتن يتخذ الله -ﷻ- ويصطفى من عباده المؤمنين شهداء، ولاحظ وتأمّل في التعبير القرآني فهذا الاصطفاء هو اصطفاء من الله -ﷻ- ينتقي من عباده شهداء يرفعهم الله-ﷻ- عنده يوم القيامة.

ثالثها :[وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا]فمن هذه الثمرات تمحيص المؤمنين لتخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه والاستغفار من الذنوب -ﷻ-ونحوه قول الله -ﷻ-: ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وأُوذُوا فِي سَبِيلِي وقَاتَلُوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فمن رحمة الله -ﷻ- بهذه الأمة أنه لا يصاب المسلم بشيء من بلاء أو فتنة أو مصيبة إلا كفّر الله بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها، كما قال -ﷺ-: " «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ**

خَطَايَاهُ»(٤١) ، بل جاء عنه -ﷺ- أنه قال: **" إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ. إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ والْبَلَابِلُ وَالزَّلَازِلُ "(٤٢)** " فليس للمسلمين عذاب مقنن في الآخرة وإنما أجمع المسلمون على أن بعض الموحدين من أصحاب الكبائر سيدخلون النار والعياذ بالله، كما أنه قد يعفوا عن آخرين لأن أصحاب الكبائر تحت مشيئة الله تعالى فإذا شاء عفا عنهم -ﷻ-، وإذا شاء عذبهم إما في الدنيا بالمصائب والمحن وإما في الآخرة في البرزخ أو يوم القيامة، ولكنه لا يُخلد أحد من أهل التوحيد في النار.

ومعنى الحديث أن غالب عذابهم يكون في الدنيا بالامتحان بالمحن والمصائب وإلا فإن الله -ﷻ- قد قال: ﴿**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾[النساء:١٢٣] إلا أن يعفو الله عنه بذلك.

ولهذا يقول بطال في شرحه لهذا الحديث : "**الْمُسلم يجازى على خطاياه فِي الدُّنْيَا بالمصائب الَّتِي تقع لَهُ فِيهَا، فَتكون كَفَّارَة لَهَا**".**(٤٣)**وكذلك يقول النبي -ﷺ-: " **لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ** ".**(٤٤)**وجاء في حديث آخر يفسر هذا الحديث أن النبي

---

(٤١) رواه البخاري[والفظ له]-كتاب المرضى-بَابُ مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ المَرَضِ ٥٦٤١ (٧/ ١١٤) ومسلم-كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ- بَابُ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ٢٥٧٢(٤/ ١٩٩٢).

(٤٢) مسند أحمد - ١٩٦٧٨ (٣٢/ ٤٥٤) سنن أبي داود-كِتَاب الْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ بَابُ مَا يُرْجَى فِي الْقَتْلِ ٤٢٧٨ (٤/ ١٠٥).

(٤٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١/ ٢٠٨).

(٤٤) مسند أحمد -٧٨٥٩ (١٣/ ٢٤٨) سنن الترمذي –كتاب الزهد-بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّبْرِ عَلَى البَلَاءِ ٢٣٩٩(٤/ ٦٠٢) قال الترمذي «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

-ﷺ- يقول: " **((إذا أحب الله عبده ابتلاه؛ فإن صبر اجتباه ,وإن شكر اقتناه))** (٤٥)"، يعنى يبتليه الله -ﷻ- ببعض الأمراض ويبتليه بكل المصائب، وببعض الأمور التي يكفر الله -ﷻ- بها عنه خطاياه، حتى إذا لقي الله -ﷻ- وهو قد لاقى عقوبته في الدنيا فابتلاؤه له، كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه

هذه بعض ثمرات الفتن والحكم الربانية منها أسأل الله أن يقينا شرّ الفتن ما ظهر منها وما بطن.

الوقفة: الخامسة.

هذه الأحاديث كلها تتحدث عن حوض النبي -ﷺ-، الحوض المورود، وما يحدث حيال ذلك الورود من ورد بعض الواردين لما أحدثوا واقترفوا من الفتن والآثام التي خالفوا بها منهاج سيد البشرية صلى الله عليه وسلم.

وهذه الأحاديث تبين لنا وتجلي رحمة الله -ﷻ- بالناس يوم القيامة، حين يبلغ بهم العرق أشده والعطش منتهاه،فيبقى الناس في حالة لا يعلمها إلا الله، لا يدري أحدهم أيكون ممن ثقلت موازينه فينجو، أو ممن خفت موازينه فيهلك، ثم يكون بعد ذلك المرور على الجسر الذي على الصراط، والناس يمرون عليه على قدر أعمالهم، وبعد الفوز بهذه المراحل الصعبة تشتد حاجتهم إلى الماء فيردون حوض النبي صلى الله عليه وسلم وهم على تلك الحالة من العطش.

(٤٥) المسند للشاشي ٦١٢ (٢/ ٩٠) شعب الإيمان ٩٣٢٩ (١٢/ ٢٣٦).

وقد جاء في الحديث: ((**إن لكل نبي حوضًا، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردةً، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردةً**)) (٤٦) ولا يرد تلك الأحواض إلا من آمن بالرسل واتبع سنتهم، وأكثر وأفضل تلك الأحواض هو حوض نبينا -ﷺ-.

وهذه الأحاديث تجلي وتبين لنا موقف النبي -ﷺ-، وحرصه على أمته وأنه واقف -عليه الصلاة والسلام- على حوضه ينتظر الوارد من أمته ليشربوا بعد هذا العذاب وهذا العطش، ولاشك أن هذا من أعظم المواقف التي تستحق التأمل، لكننا في بداية الحديث عن هذه الأحاديث نكتفي بتقرير ما ثبت فيها هي وغيرها من أحاديث كثيرة تثبت الحوض لنبينا -ﷺ-، وأنه يكون يوم القيامة قبل دخول الناس الجنة والنار، وهذا ما عليه عامة المسلمين إلا من شذّ ممن قلّ علمه، وقد اشتهر إنكار الحوض بادئ الأمر عن ابن زياد والي معاوية رضي الله عنه، لكنه رجع عن ذلك، لما حاجه الصحابة رضوان الله عليهم فعن أنس قال " دخلت على ابن زياد وهم يذكرون الحوض، فقال: هذا أنس فقلت: لقد كانت عجائز بالمدينة كثيرا ما يسألن ربهن أن يسقيهن من حوض نبيهن"(٤٧)

وعند أحمد من طريق عبد الله بن بريدة عن أبي سبرة بفتح المهملة وسكون الموحدة الهذلي قال قال عبيد الله بن زياد : "ما أصدق بالحوض" وذلك بعد أن حدثه أبو برزة والبراء وعائذ بن عمرو فقال له أبو سبرة:" بعثني أبوك في مال إلى معاوية فلقيني عبد الله بن عمرو فحدثني وكتبته بيدي من فيه أنه " سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم — وذكر الحديث، وفيه وَقَالَ: ((أَلَا إِنَّ مَوْعِدَكُمْ حَوْضِي، عَرْضُهُ وَطُولُهُ وَاحِدٌ، وَهُوَ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَمَكَّةَ، وَهُوَ مَسِيرَةُ

(٤٦) رواه الترمذي – أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الحَوْضِ ٢٤٤٣(٤/ ٦٢٩) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ" وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٣١).

(٤٧) فتح الباري (١١/ ٤٦٨).

شَهْرٍ، فِيهِ مِثْلُ النُّجُومِ أَبَارِيقُ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الْفِضَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ مَشْرَبًا، لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا)) فَقَالَ عُبَيْدُ اللهِ: " مَا سَمِعْتُ فِي الْحَوْضِ حَدِيثًا أَثْبَتَ مِنْ هَذَا فَصَدَّقَ بِهِ، وَأَخَذَ الصَّحِيفَةَ فَحَبَسَهَا عِنْدَهُ ")) .(٤٨)

وحمل هذا اللواء بعد ذلك الخوارج وبعض المعتزلة قال ابن حجر وأنكرت طائفة من المبتدعة الحوض، وأحالوه على ظاهره، وغلوا في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته، ولا حاجة تدعو إلى تأويله فخرقوا إجماع السلف وفارقوا مذهب الخلف".

وقد كان برزة رضي الله عنه يقول عن منكري الحوض عبارته المشهورة: "من كذب به فلا سقاه الله منه"(٤٩)

فهؤلاء المبتدعة ينكرون الحوض مع أن الله -ﷻ- قد امتن بالكوثر على نبيه -ﷺ- في قوله: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ [الكوثر ١-٣].

والعلاقة بين الحوض والكوثر الذي أعطي للنبي -ﷺ-، أن الحوض هو أحد معالم الكوثر الذي أعطاه الله تعالى لنبيه -ﷺ-،فالحوض المورود حوض في الأرض للنبي - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة, والكوثر في الجنة يصب منه ميزابان في الأرض في هذا الحوض الذي وعد الله به نبيه- عليه الصلاة والسلام- ويرده عليه المؤمنون من أمته, وهو حوض عظيم طوله شهر وعرضه شهر, يرد عليه أهل الإيمان ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً,

(٤٨) مسند أحمد ٦٥١٤ (١١/ ٦٤)

(٤٩) مسند أحمد ١٩٧٦٣ (٣٣/ ٩).

وآنيته عدد نجوم السماء, وماءه من الجنة ينزل من نهر الكوثر ،كما جاء في الأحاديث. **(٥٠)**

وجاءت الأحاديث أيضا في ذكر أول الواردين لحوض نبينا محمد -ﷺ-، فقال صلى الله عليه وسلم((حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدَنٍ إِلَى عُمَانَ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَكْوَابُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا وَأَوَّلُ النَّاسِ عَلَيَّ وُرُودًا فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الشُّعْثُ رُءُوسًا الدُّنْسُ ثِيَابًا الَّذِينَ لا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوابُ السُّدَدِ وَلا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ الَّذِينَ يُعْطُونَ كُلَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ وَلا يُعْطَوْنَ الَّذِي لَهُمْ)). **(٥١)**

فكما حُرموا من بعض النعيم في الدنيا، فإن الله قد عوضهم خيرًا منه بأن جعلهم أول الواردين على حوض نبينا -ﷺ-، وهنيئًا لهم بذلك.

أما القسم الثاني فهم أهل اليمن، وهذه خاصية لأهل اليمن لقوله -ﷺ-: ((إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم)) **(٥٢)** قال الإمام النووي –رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث:" ومعناه : أطرد الناس عنه من غير أهل اليمن ليرفضَّ على أهل اليمن،وهذه كرامة لأهل اليمن في تقديمهم في الشرب منه، مجازاةً لهم بحسن صنيعهم وتقدّمهم في الإسلام، والأنصار من أهل اليمن، فيدفع غيرهم حتى يشربوا، كما دَفَعوا في الدنيا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أعداءَه، والمكروهات،ومعنى (يرفضّ عليهم: أي يسيل عليهم". **(٥٣)**

---

(٥٠) تقدم تخريجه.

(٥١) رواه أحمد في المسند ٦١٦٢ (١٠/ ٣٠٣) والترمذي في سننه – أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الحَوْضِ (٤/ ٦٣٠).

(٥٢) صحيح مسلم– كتاب الفضائل–بَابُ إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَاتِهِ ٢٣٠١ (٤/ ١٧٩٩).

(٥٣) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٦٢).

وخصائص أهل اليمن كثيرة منها ما أخرجه الشيخان من أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان والحكمة يمانية)). (٥٤)

وقد أكرمهم الله بهذه الخصيصة لحسن إسلامهم وتقدمهم في الإسلام، وقبولهم البشرى التي ردها بنو تميم، فعن عمْرَان بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : جَاءَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا بَنِي تَمِيمٍ أَبْشِرُوا . قَالُوا : بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، فَجَاءَهُ أَهْلُ الْيَمَنِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْيَمَنِ اقْبَلُوا الْبُشْرَى إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ . قَالُوا : قَبِلْنَا . جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ)) (٥٥)قال ابن حجر : "أي : اقْبَلُوا مِنِّي ما يقتضي أن تُبَشَّروا إذا أخذتم به بالجنة ،كالفِقْه في الدّين والعَمَل به" . (٥٦) وبذلك استحقوا هذا الفضل وهذا التقدم على سائر الأمة في ذلك الموقف.

واليمن إذا أُطلِق فهو أعمّ من اليمن المعروف اليوم بحدوده السياسية،ولعل أوضح الحدود في العُرف الشرعي : قوله عليه الصلاة والسلام : وَيُهِلُّ أَهْلُ الْيَمَنِ مِنْ يَلَمْلَمَ . (٥٧)فما وراء ميقات يلملم يُعتبر كله من اليمن ، والله أعلم.

مسألة:

---

(٥٤) صحيح البخاري- كِتَابُ المغَازِي- بَابُ قُدُومِ الأَشْعَرِيِّينَ وَأَهْلِ اليَمَنِ ٤٣٨٨ (٥/ ١٧٤) صحيح مسلم- كتاب الإيمان- بَابُ تَفَاضُلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِيهِ، وَرُجْحَانِ أَهْلِ الْيَمَنِ فِيهِ ٥٢ (١/ ٧١).

(٥٥) رواه البخاري- كتاب بدء الخلق- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} ٣١٩٠ (٤/ ١٠٥) .

(٥٦) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٢٨٨).

(٥٧) رواه البخاري - كِتَابُ العِلْمِ - بَابُ ذِكْرِ العِلْمِ وَالفُتْيَا فِي المَسْجِدِ ١٣٣ (١/ ٣٨) ومسلم- كتاب الحج - بَابُ مَوَاقِيتِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ١١٨٢ (٢/ ٨٣٩).

هل الحوض قبل الصراط ، أو بعده؟.

اختلف العلماء رحمهم الله في ذلك لكن من خلال الأدلة الواردة في الحوض ومكانه، يظهر أنه على حافة الجنة؛ لأن الكوثر يصب فيه مباشرة، وأنه بعد الصراط، ويدل على هذا حديث أنس رضي الله قَالَ : سَأَلْتُ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : قَالَ : ((أَنَا فَاعِلٌ))قَالَ : فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا نَبِيَّ اللهِ ؟ قَالَ : ((اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ)) قَالَ : قُلْتُ : فَإِذَا لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ ؟قَالَ : ((فَأَنَا عِنْدَ الْمِيزَانِ)) قَالَ : قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ ؟قَالَ : ((فَأَنَا عِنْدَ الْحَوْضِ ، لاَ أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلاَثَ مَوَاطِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) فهذا دليل على أنه بعد الصراط والله أعلم، وهذه مسألة شائكة لانستطيع أن نجزم فيها بشيء.

قوله -ﷺ-: **"أنا على حوضي"**، هذا أحد مواطن وجوده صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، فهو يكون على الحوض، ويكون على الصراط ، وهذا يدل على حرص النبي -ﷺ- على أمته ونجاتهم، فهنا يقول ((أنا على حوضي)) وفى حديث آخر **"أتقدمكم إليه ثم أنتم تهرعون"**.

في قول النبي -ﷺ- [أنتظر من يرد علي] هذا دليل آخر على شفقته عليه الصلاة والسلام ورحمته بأمته ، وفيه تشريف وتشويق و إغراء إلى الحرص على التزام سنته لئلا يحال بين المؤمن وبين الوقوف على حوضه -ﷺ-.

قوله -ﷺ- [فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي] فتمنعهم الملائكة من الشرب وورود الحوض ، ويلاحظ هنا تجاوز المراحل المتقدمة لبعض الناس حتى يصلوا إلى الحوض، فإذا أقبلوا إلى الحوض ووصلوا إلى النبي -ﷺ- يريد أن يناولهم من حوضه عليه الصلاة والسلام حيل بينهم وبين ذلك، نسأل الله العافية

وفى الرواية الأخرى [يأتي على أقواما أعرفهم ويعرفوني ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ] وهؤلاء الذين تجاوزوا هذه المراحل حتى وصلوا إلى النبي -ﷺ- ثم حيل بينهم وبين حوضه -ﷺ- إما يكونوا من أهل النفاق ممن أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ففي الحديث: ((إِنَّ فِي أُمَّتِي اثْنَيْ عَشَرَ مُنَافِقًا ". فَقَالَ: " لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)) أو من أهل الأهواء الذين غيَّروا سنَّة النبي صلى الله وسلم وهديه ، كالروافض ، والخوارج وبعض العلماء يُدخل فيهم : أهل الكبائر ، وله ما يؤيده من السنَّة ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكِذْبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ).

فالشاهد أن قوله [أعرفهم يعرفوني] يدخل فيه المنافقون، وغيرهم ممن ارتدّ عن الإسلام بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وهم كثير حيث اردت قبائل العرب كبيرة حتى قام أبو بكر رضي الله عنه تعالى وأرضاه فرد الناس إلى دين الله.

والحرمان من ورود حوضه صلى الله عليه وسلم يكون على نوعين:

أ- حرمان مطلق، ومنع كلي من ورود حوضه صلى الله عليه وسلم وهذا خاص بالمرتدين والمنافقين.

ب- حرمان مقيد ومنع جزئي وهذا خاص ببعض أصحاب الكبائر والبدع والإحداث غير المكفر.

أسباب المنع من ورود الحوض:

هذه الأسباب وردت في ثلاث روايات وهي قوله صلى الله عليه وسلم: ((فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى)) وقوله: ((يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)) وقوله: ((فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك)) فالممنوعون من الحوض جمعوا بين هذه الخصال الثلاث، وهي النكوص على العقبين بعدم الاستقامة والالتزام بالسنة، والإحداث في الدين بالبدع المحدثات ، والتبديل والتحريف ومنه تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم.

باب قول النبي-ﷺ-: "سترون بعدي أمورًا تُنكرونها".

وقال عبد الله بن زيد، قال النبي-ﷺ-: **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض".**

ذكر المصنف – رحمه الله تعالى- تحت هذه الترجمة ستة أحاديث، أو خمسة أحاديث مسندة والسادس المعلق الذي أشار إليه في المقدمة، يقول -رحمه الله تعالى- :

١- **حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ القَطَّانُ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا» قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ»**

٢- **حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، عَنِ الجَعْدِ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**

٣- **حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنِ الجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ، حَدَّثَنِي أَبُو رَجَاءٍ العُطَارِدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**

٤- **حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ بُكَيْرٍ، عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ، سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ،**

٥- **فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»**

٦- **حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَرْعَرَةَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَعْمَلْتَ فُلاَنًا وَلَمْ تَسْتَعْمِلْنِي؟ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي»**

هذه الأحاديث، أخرجها المصنف -رحمه الله تعالى- كما تلاحظون تحت باب قول النبي -ﷺ-: **"سترون بعدي أمورًا تُنكرونها"**، وقال عبد الله بن زيد قال النبي -ﷺ-: **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض"**.

وهذا الباب هو أول أبواب كتاب (الفتن) أعاذنا الله وإياكم والمسلمين منها، وعلاقة هذا الباب بكتاب الفتن واضحة وظاهرة من خلال هذه الترجمة، فإن المصنف -رحمه الله تعالى- لفقهه -رحمه الله تعالى- أشار إلى أهم أسباب الفتن وأهم علاجها من خلال النصوص، فأشار إلى أهم وأكبر أسباب الفتن وأشار إلى أهم علاج لها من خلال هذه الترجمة.

ونلاحظ أيضًا أن هذه الترجمة مستلة من النصوص التي ساقها المصنف -رحمه الله تعالى- فهي ليست بجديدة وإنما هي استنباط من الأحاديث واستشهاد من الأحاديث واقتباس منها، ففي قوله قال باب قول النبي -ﷺ- "سترون بعدي أمورًا تُنكرونها"، هذا النص هو من الحديث الثاني الذي سيأتي ذكره مفصلًا وهو الحديث الثاني الذي ذكره المصنف -رحمه الله تعالى-.

أما قوله: وقال عبد الله بن زيد قال النبي -ﷺ-: **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض"**، فهذا الحديث المعلق هنا ذكره الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- موصولًا في كتاب (المغازي) في

غزوة حنين، وهنا ذكره معلقًا في الترجمة، وهذا النص له شواهد عدة جاءت في الأحاديث التي ساقها المصنف -رحمه الله تعالى- تحت هذه الترجمة.

وقد تضمن الإشارة إلى أبرز الأسباب المؤدية إلى الفتن وهي الأمور التي تقع من الأمراء والولاة وهي التي ينكرها الناس، وهذه الأمور ذات شقين: فمنها أمور تتعلق بالحقوق الدينية وأمور تتعلق بالحقوق الدنيوية. وهنا قال: **"سترون بعدي أمورًا تُنكرونها"**، وجاء لفظ "أمورًا" على سبيل النكرة لتعود على جميع الأمور وجاء في الحديث الذي يليه **"سترون بعدى أثرة "** أو **"ستلقون بعدي أثرة"**.

وكما تضمن الإشارة إلى أبرز أسباب الفتن أشار أيضا إلى أهم علاج لها، وهو قوله -ﷺ- وتوجيهه -عليه الصلاة والسلام- في قوله: **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض"**. ومناسبة هذه الترجمة الجليلة للكتاب واضحة جلية من جميع النواحي، فقوله: **"سترون بعدي أمورًا تُنكرونها"**، يشير إلى أن أعظم أسباب الفتن ظهور المنكرات ومنازعة الأمراء الأمر مما يؤدي ذلك إلى الاقتتال والفتن، والأصل في هذا الحديث أن المخاطب به هم الأنصار -رضوان الله تعالى عليهم- وذلك لأنهم ليس لهم في أمر الخلافة والإمامة العظمى شيء لأن النبي -ﷺ- قال: **"الأئمة من قريش"(٥٨)** لكن الخطاب يعم جميع المسلمين فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هي القاعدة العلمية المشهورة في هذا الأمر وفيه الأمر بالصبر مع وجود الأثرة التي قد تكون سببًا في اندفاع الإنسان لرفع هذه الأثرة والمطالبة بحقه فيقع الاقتتال

(٥٨) رواه أحمد في المسند ١٢٣٠٧ (١٩/ ٣١٨) وقال الهيثمي رِجَالُ أَحْمَدَ ثِقَاتٌ. ورواه النسائي في السنن الكبرى- كتاب القضاء٥٩٠٩ (٥/ ٤٠٥) والحاكم في المستدرك –كتاب معرفة الصحابة-باب فضائل قريش- ٦٩٦٢ (٤/ ٨٥) وسكت عنه الذهبي في التلخيص،وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢/ ٢٩٨).

والفتنة، فأمر النبي -ﷺ- بإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة فقال: **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض"**.

وقد جاءت نصوص أُخرى تبين دخول عموم المسلمين في هذا الخطاب، مثل حديث يزيد بن سلمة الجعفي -رضي الله عنه- أنه قال [قال يا رسول الله إن كان علينا أمراء يأخذون بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي لنا أنقاتلهم ؟" قال -ﷺ-: " **اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ** " **(٥٩)** فهذا الحديث يدل على أن الخطاب عام لجميع المسلمين، ويدل على ذلك أيضا حديث أم سلمة وهو عند مسلم عن النبي -ﷺ- قال: **"سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا»"(٦٠)**.

ومعنى الحديث أنه سيكون أمراء سيعرف الإنسان المعروف الذين يعملونه وبعض المنكرات التي قد يرتكبونها فبين النبي -ﷺ- أن مواقف الناس من هؤلاء على ثلاثة أصناف: **الصنف الأول**: من كره ما يأتونه من المنكر بقلبه وأظهر كراهته لهذا المنكر **فقد بريء**. **الصنف الثاني**: من أنكر بلسانه فبيّن أن هذا منكر لا يجوز السكوت عليه **فقد سَلِم**، وهذه أعلى من مجرد الكراهة بقلبه.

الصنف الثالث: **" من رضي وتابع"** وهذا هو أخطر الطوائف الثلاث وهو الذي رضي وتابع على وجود المنكر من غير كراهة له ومن غير إنكار له فإنه يلحقه من الذنب ما يلحق من ارتكبه.

---

(٥٩) رواه مسلم- كتاب الإمارة- بَابٌ فِي طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ مَنَعُوا الْحُقُوقَ ١٨٤٦ (٣/ ١٤٧٤).

(٦٠) رواه مسلم- كتاب الإمارة- بَابٌ فِي طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ مَنَعُوا الْحُقُوقَ ١٨٥٤ (٣/ ١٤٨٠).

وقوله: فقيل: **"ألا نقاتلهم؟"** أي ننازعهم الأمر، قال -ﷺ-: **"لا ما صلّوا"** هنا جعل حدًا مانعًا من جواز الخروج على الإمام وهو الصلاة، فالمقيم للصلاة لا يجوز الخروج عليه وإن ظلم وإن استأثر ببعض الحقوق وإن حصل منه ما حصل من منكر، وقد جاء تأكيد هذا في أحاديث أُخر كقوله صلى الله عليه وسلم: **"لا ما أقاموا فيكم الصلاة"(٦١)**، وقوله: **" «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» "(٦٢)**، فهذه الأمور الثلاثة: ما صلّوا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ما قادوكم بكتاب الله، موانع تمنع من الخروج على ولاة الأمر وإن وقع منهم ما وقع من معاصي.

والمقصود بإقامة الصلاة الالتزام بها في أنفسهم والدعاء إليها في رعاياهم من المسلمين، وبذلك يكون الموقف الشرعي هو الصبر على ما يفعلون من منكرات وسيأتي تأكيد ذلك فيما سيأتي من النصوص.

(المتن): في قول عبد الله بن زيد بن عاصم -رضي الله عنه- قال النبي -ﷺ-: **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض"**.

(الشرح): هذا الحديث كما قلنا في الديباجة السابقة ورد موصولا في غير هذا الموضع، وفيه الأمر بالصبر مع وجود الأثرة التي قد تكون سببًا في اندفاع الإنسان لرفع هذا الظلم والاستئثار بالحقوق دون غيرهم من سائر المسلمين ، وهذا الحديث في مجمله فيه:

أولا: الأمر بالصبر مع وجود الأثرة، وهي الاستئثار بالحقوق والانفراد بالشيء دون مستحقيه، فيُمنع صاحب الحق ويُستأثر بالحق دونه من جهة السلطان أو غيره، وهذا يدل على أن الأمر له طرفان: المستأثِر وهو الوالي أو الحاكم أو من يلي الأمر، والمستأثَر عليه وهو

---

(٦١) رواه مسلم- كتاب الإمارة-بَابُ خِيَارِ الْأَئِمَّةِ وَشِرَارِهِمْ ١٨٥٥ (٣/ ١٤٨١).

(٦٢) صحيح مسلم- كتاب الحج- بَابُ اسْتِحْبَابِ رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ رَاكِبًا، وَبَيَانِ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ» ١٢٩٨ (٢/ ٩٤٤).

من استُؤثر بحقه ولم يُعط حقه فمُنع حقه الذي يستحقه، فلذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: **"إنكم سترون بعدي أثرة اصبروا حتى تلقوني على الحوض"**.

ثانيا: في الحديث إشارة إلى قاعدة مهمة وهي أن درء المفاسد مقدمٌ على جلب المصالح، فهنا الإنسان من حقه أن يطالب بحقه، لكن إذا كانت هذه المطالبة يترتب عليها المقاتلة، وهذه المقاتلة يترتب عليها ما يقع من منكراتٍ ومن فتنةٍ تعمّ الخاص والعام فإنه هنا يصبر ويتنازل عن حقه ويصبر عن المطالبة بحقه درءًا للمفسدة التي تعم الجميع، لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، فالاستئثار من المصلحة الخاصة فكونه يستأثر ويُؤخذ حق الإنسان ويُمنع من حقه الذي هو له فهنا إن قام وطالب بالقوة في أخذ حقه ترتب على ذلك مفسدة عامة، فترتب على ذلك أن المصلحة العامة تُقدم على المصلحة الخاصة، فكونه يترك هذا الحق الذي هو له من أجل درء هذه المفسدة العامة وهى وقوع الفتنة فإنه ما جاء التشريع عليه واضحًا في هذه النصوص.

ثالثا: فيه أيضًا الوعد النبوي من النبي -ﷺ- لمن ترك حقه الخاص حرصًا على وحدة صف المسلمين وعلى جماعتهم وحرصا على إماتة الفتنة، فإن النبي -ﷺ- وعده باللقاء على حوضه الشريف -ﷺ- وكفى بذلك شرفًا وسؤددًا، والنبي -ﷺ- وعْدُه حق لا يُخلف، فمعنى ذلك أن من كتم غيظه وصبر على الاقتتال على حقه في هذه الدنيا فهو موعودٌ بأن يلقى النبي -ﷺ- على حوضه الشريف -ﷺ- وتقدم الكلام عن الأحاديث المتعلقة بالحوض.

رابعا: في هذا الحديث إشارة إلى أهم أسباب الفتن وهي استئثار الحكام بالأموال والولايات والحقوق وقيام بعض الناس بالمطالبة بحقوقهم فيؤدي ذلك إلى الفتنة، وهنا في إشارة مهمة جدًا في هذا الباب يمكن التنبية إليها وهي قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في منهاج السنة:" وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ أَسْبَابَ هَذِهِ الْفِتَنِ تَكُونُ مُشْتَرَكَةً، فَيَرِدُ عَلَى الْقُلُوبِ مِنَ الْوَارِدَاتِ مَا يَمْنَعُ الْقُلُوبَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَقَصْدِهِ. وَلِهَذَا تَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْجَاهِلِيَّةُ

لَيْسَ فِيهَا مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَلَا قَصْدُهُ، وَالْإِسْلَامُ جَاءَ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَقَصْدِهِ. فَيَتَّفِقُ أَنَّ بَعْضَ الْوُلَاةِ يَظْلِمُ بِاسْتِئْثَارٍ فَلَا تَصْبِرُ النُّفُوسُ عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا يُمْكِنُهَا دَفْعُ ظُلْمِهِ إِلَّا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنْهُ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ لِأَخْذِ حَقِّهِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُ، لَا يَنْظُرُ فِي الْفَسَادِ الْعَامِّ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْ فِعْلِهِ. ".(٦٣)

فالإنسان حال البحث عن حقه المسلوب ودفع الظلم عنه لا ينظر أحيانا إلى الفساد العام، وإنما ينظر إلى الفساد المتعلق بحقه فقط فيطالب بحقه دون النظر لما يترتب على هذه المطالبة من منكرات أعظم من ذلك، فيكون ذلك سببا في شق عصا الطاعة والخروج عن الجماعة ووحدة الصف وزراعة بذور الفتنة والاقتتال بين المسلمين التي لا تفرق بين الصالح والطالح.

يقول رحمه الله: " فقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَصْبِرُوا عَلَى الِاسْتِئْثَارِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يُطِيعُوا وُلَاةَ أُمُورِهِمْ وَإِنِ اسْتَأْثَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَنْ لَا يُنَازِعُوهُمُ الْأَمْرَ. وَكَثِيرٌ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ إِنَّمَا خَرَجَ لِيُنَازِعَهُمْ مَعَ اسْتِئْثَارِهِمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَى الِاسْتِئْثَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ يَكُونُ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ ذُنُوبٌ أُخْرَى، فَيَبْقَى بُعْضُهُ لِاسْتِئْثَارِهِ يُعَظِّمُ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ، وَيَبْقَى الْمُقَاتِلُ لَهُ ظَانًّا أَنَّهُ يُقَاتِلُهُ لِئَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا حَرَّكَهُ عَلَيْهِ طَلَبُ غَرَضِهِ: إِمَّا وِلَايَةٌ، وَإِمَّا مَالٌ". وهنا يكون الإنسان بين الشبهة والشهوة وهذا مما يعظم الذنوب فلذلك جاء الحديث معالجًا لهذه القضية وهذا الداء النفسي الذي أشار إليه شيخ الإسلام بن تيمية –رحمة الله عليه– فقال –عليه الصلاة والسلام– "**ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**"، فأشار إلى السبب وأشار إلى العلاج الناجح بإذن الله –ﷻ– عند وجود هذا الاستئثار.

الحديث الثاني: حديث عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال قال رسول الله –ﷺ–: "**إنكم سترون بعدي أثرَة وأمورا تنكرونها...**". والترجمة جاءت بلفظ "**سترون بعدي أمورًا**

(٦٣) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٣٩).

تنكرونها" وهي رواية ولفظ آخر للحديث، وهنا ذكر أمرين: وهي أنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها، فذكر الأثرة وذكر الأمور التي ننكرها أو ينكرها المسلمون وهذا إخبار من النبي -ﷺ- عن غيبٍ قبل أن يقع، وقد وقع كما أخبر -ﷺ- فهو من دلائل نبوته -ﷺ- لإخباره عن غيب المستقبل، فوقع كما أخبر -ﷺ- وحصلت الأثرة وحصلت الأمور التي ينكرها المسلمون على ولاتهم.

قوله: **"قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟"** أي: ما دام أننا سنرى هذه الأثرة وسنرى هذه الأمور المنكرة التي تقع من الولاة فما توجيهك لنا، والأثرة هنا عادَة تختص بالأمور الدنيوية وهي الحقوق الدنيوية المالية والمناصب وغيرها، أما قوله: **"أمورًا تنكرونها"** فهذا يتعلق بالأمور الدينية ومخالفات شرعية يرتكبها بعض الولاة، فأشار النبي -ﷺ- في هذا الحديث في قوله: **"إنكم سترون من بعدي أثرة وأمور تنكرونها"** إلى مخالفاتٍ تقع من الولاة متعلقة بالأمور الدينية وبالأمور الدنيوية وهذا شاهدٌ على أن النبي -ﷺ- قد أوتي جوامع الكلم -عليه الصلاة والسلام-، فهي كلماتٌ قليلة تحتمل معانٍ كثيرةٍ جدًا، وهي إشارات واضحة جدا إلى أن من الولاة من تقع منهم مثل هذه الأمور وهي أكبر أسباب الخروج عن الوالي وهي إما المطالبة بحقوقٍ مالية واستئثاره بالحقوق وإما الإنكار عليه في الأمور الدينية فسألوا النبي -ﷺ- عن ذلك حينما قالوا: **"فما تأمرنا يا رسول الله؟"**، ومعلوم أن النبي -ﷺ- لا ينظر إلى مصلحة الولاة فقط ولا إلى مصلحة من استُؤثر بحقه وأُخذ منه حقه، وإنما ينظر إلى المصلحة العامة، والمصلحة الشرعية، المصلحة التي تقوم عليها الأمة ويتحد صفها ولا تقع الفتنة التي تقضي على الأخضر واليابس، فهنا قال النبي -ﷺ-: **"أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم"**، وفي هذه العبارات القليلة التي تعد من جوامع كلمه -عليه الصلاة والسلام- بين لهم ما يجب على الرعية حينما ترى من ولاتها ومن أمرائها بعض المخالفات إما باستئثار الحقوق وإما ببعض المنكرات الشرعية، فقال -عليه الصلاة والسلام- : **"أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم"**، أي لا يكون هذا الاستئثار ببعض الحقوق ومنع مستحقيها أو ظهور بعض

المحرمات منهم مدعاة للخروج عليهم وشق عصا الطاعة، بل ولا يجوز أن يكون هذا سببًا في منع حقوقهم، لأن الولاة عليهم حقوق للرعية والرعية عليها حقوق للولاة والله -ﷻ- سائلٌ كلٌ عن ما استرعاه-ﷻ-، فتقصير الولاة في حقوق الرعية لا يكون سببًا في منع الرعية الحقّ الذي أوجبه الله -ﷻ- عليها، وهذه قاعدةٌ مضطردة فكون الإنسان يمنع الحقوق التي لك لا يسوغ لك منع الحقوق التي عليك، وإنما عليك أن تؤدي ما عليك وتسأل الله -ﷻ- ما لك ولا يضيع عند الله سبحانه وتعالى شيئًا، ولو أخذنا بمثل هذا التوجيه النبوي العظيم لصلحت أحوال المجتمعات والأفراد، فللحاكم حقوق على المحكوم وللمحكوم حقوق على الحاكم، إذا منع الحاكم حقوق المحكوم لا يكون ذلك مدعاة لمنع المحكوم ما للحاكم عليه من طاعة.

وهذه القاعدة ليست خاصة بالراعي والرعية بل يجب العمل بمقتضاها بين أفراد المجتمع عامة، فالوالد له حقوق وعليه حقوق، وكذلك الزوج والأخ والجار، وكلٌ مطالب بتأدية الحق الذي عليه لكن من قصّر في بعض حقوق غيره تؤدى له جميع الحقوق التي له ولو أننا قمنا بتطبيق هذه القاعدة الشرعية لصلحت أحوال الرعية وصلحت الأمور، ولكن النفوس مجبولة على المشاحَّة، فكون الإنسان يُحرم من بعض حقوقه، يدعوه إلى منع الحق من باب مقابلة الحرمان فتزداد الفجوة ويزداد التباغض والتنافر والصراع فجاء النبي الذي لا ينطق عن الهوى -ﷺ- بالشفاء والدواء الشافي بإذن الله -ﷻ- فقال: "**أدوا إليهم حقهم**" لهم حقوق علينا وعلينا أن نؤديها، "**وسلوا الله حقكم**" فهم منعونا هذا الحق فهذا الحق لا يضيع أبدًا وإنما نسأله مالكه -ﷻ- الذي لا يضيع عنده شيء، فإن لم يتحقق في هذه الدنيا فيكون عند الله -ﷻ- في الآخرة هو أعظم أجرا ونحن أحوج إليه أكثر من ذلك، أما إذا بقيت المنازعة المشاحّة فيقع الخلل وتقع الفتنة صغيرةً كانت هذه الفتنة أو كبيرة.

وهذا الحديث جاء تفسيره أيضًا في أحاديث أُخرى عن النبي -ﷺ- كما في حديث عوف بن مالك -رضي الله عنه- قال -ﷺ-: **"إذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عَمَلَه"(٦٤)** أي: اكرهوا تلك المخالفة عدا ما يتعلق بالأمور الدينية فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدًا من طاعة، وهذه تبين حقيقة العلاقة؛ فقد يرتكبُ معصية ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق لكن الواجب علينا أن نكره ذلك العمل الذي يرتكبه هذا الوالي، ولا يكون ذلك مدعاةً إلى نزع اليدِ من طاعته والتقصير في حقه الذي أوجبه الله -سبحانه وتعالى- علينا.

ومن تفاسير هذا الحديث أيضا حديث عمر-رضي الله عنه- قال: "أتاني جبريل فقال: ((إن أُمَتَكَ مُفتتنة من بعدك)). يعني سيقع عليها فتن، وتقع فتن، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وقعت كما أخبر-عليه الصلاة والسلام-. ((فقلت: من أين هذه الفتن التي ستقع في هذه الأمة؟)) فقال: ((من قِبَلِ أُمرائهم وقرَّائهم))، فهذه الفتن المتسبب فيها هم الأمراء والقرَّاء، ، قال: ((يَمنعُ الأمراءُ الناسَ الحقوقَ فيُظلَمون حقوقَهم ولا يُعطونها، فيَقتتلُوا ويُفتَتَنُوا، ويَتبَعُ القُرَّاءُ أهواءَ الأمرَاءِ، فيمُدُّونهم في الغيِّ، ثم لا يُقصِرُون)). قال: "فقلت: فكيف يسلم من سلم منهم؟ قال: ((بالكف والصبر، إن أُعطوا الذي لهم أخذوه، وإن مُنِعوهُ تركُوه".**(٦٥)** فالسلامة من مثل هذا الأمر تحصل بأمرين: بالكف والصبر. فالرعية لهم حقوق، إن أُعطوا هذه الحقوق أخذوها، وإن مُنِعوها تركوها إيثارًا للمصلحة العامة، واستجابةً لتوجيه النبي -ﷺ- في غير من حديث، وادخارًا لها عند الله-سبحانه وتعالى- يوم القيامة. لكن طبيعة الناس لضعف إيمانهم فإنهم يريدون العاجلة ويذرون وراءهم يومًا ثقيلًا؛ فلذلك لا يدخرون شيئا لهم في الآخرة، فيطالبون بحقوقهم في هذه الدنيا، فيقع الافتتان وتقع الفتنة التي لا تفرَّق بين صغير وكبير ولا بين محقٍ ومخطئ.

---

(٦٤) رواه مسلم- كتاب الإمارة- بَابُ خِيَارِ الْأَئِمَّةِ وَشِرَارِهِمْ ١٨٥٥ (٣/ ١٤٨١).

(٦٥) السنة لابن أبي عاصم ٣٠٣ (١/ ١٣٢).

طبعًا هذه النصوص وما في مثلها لا تمنع من مطالبة الإنسان بحقه، لكن لا يأخذ حقه بالعنوة والقوة ولا يسوغ لنفسه الخروج عن الطاعة، وشق عصا جماعة المسلمين. نعم، له أن يُطالب بحقه بالسبل والمسالك المشروعة من تقدمٍ بشكوى إلى جهات رفع المظالم من محاكم أو المسئولين أو غير ذلك، فإن حصل على حقه فالحمد لله، وإن لم يحصل على حقه فلا يكون ذلك ذريعةً لشق العصا ومحاولة لأخذ حقه بالقوة؛ لأنه يترتب على هذا من المفاسد وزرع بذور الفتنة ما لا يخفى على مُتأمِّل، والتاريخ بطولِهِ شاهد في القديم والحديث على ما آل إليه أمر كل من خالف هذا التوجيه النبوي العظيم.

من فوائد الحديث:

١- بيان بعض دلائل نبوة النبي-ﷺ- في إخباره -ﷺ- بالمغيبات، وقد حصل ما أخبر به النبي -ﷺ- ولم يكن في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة هذا الاستئثار والأمور التي تُنكر عليهم، ولكن الذين خرجوا على الخلفاء الراشدين، إنما خرجوا بغير سببٍ شرعيٍّ وجيهٍ البتَّة. فلم يكن عند الخلفاء الأربعة الراشدين الذين شهد لهم النبي -ﷺ- بذكائهم وشهد لهم بالجنة، وشهد لهم بأن خلافتهم خلافة نبوة وعلى منهاج النبوة، وإنما حصل الاستئثار وحصلت المظالم وحصلت المنكرات من بعد الخلفاء الراشدين -رضوان الله تعالى عليهم-.

٢- عند ظهور المنكرات الدينية والاستئثار بالحقوق الدنيوية دون مستحقيها لا يكون ذلك مدعاةً للخروج عليهم بالسلاح، أو منعهم من حق الطاعة الذي أوجبه الله -سبحانه وتعالى عليه-. ولو أن المسلمين التزموا بهذا الأمر الذي دلهم عليه النبي -ﷺ- لصلحت أحوالهم، وما فقدوه في هذه الدنيا من مصالح، فإنهم يجدوها عند الله هي خيرًا، وأعظم أجرًا، وأكثر حاجةً هم لها في مثل ذلك المقام.

بعد هذا الحديث المعلق ذكر المصنف رحمه الله حديثين متقاربين في الألفاظ كلاهما عن ابن عباس.

الأول: قال: عن أبي رجاءٍ عن ابن عباسٍ عن النبي -ﷺ- قال: **"من كره من أميرِهِ شيءً فليصبر، فإنه ما خرج من السلطان شبرًا مات ميتةً جاهلية"**. وذكره **الثاني**: حدثني عن أبي عثمان قال: حدثني أبو رجاء قال: سمعت ابن عباس–رضي الله تعالى عنهما– عن النبي -ﷺ- قال: **"من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتةً جاهلية"**. فهو نفس الحديثِ الأول بألفاظٍ مقاربة.

وذكر البخاريُّ هذا الحديث مرتين وهو بنفس الألفاظ تقريبًا ومروي عن ابن عباس في الإسنادين لفائدة حديثية وهو أن الحديث الأول جاء عن أبي رجاء مُعنعنا عن ابن عباس، وكونه قال: عن ابن عباس فإن هذا يحتمل التدليس، وجاء في الإسناد الآخر مُصرحًا بالتحديث عن ابن عباس، فارتفع توهم التدليس الذي كان محتملًا في ذلك الحديث، فتكراره لرفع إيهام التدليس في هذا الحديث، هذا من جهة الإسناد.

أما من جهة اللفظ، فنصوص الأحاديث يفسر بعضها بعضًا وهذا ظاهرٌ هنا في هذين الحديثين. ففي هذا الحديث يقول ابن عباس–رضي الله تعالى عنهما– يقول عن النبي -ﷺ- أنه قال: ((من كره من أميره شيئا)) والشيء هنا جاءت نكرة؛ فهي تفيد العموم، أي شيءٍ حصل من أميره كرهه الإنسان، كرهه كراهةً دينية، بحيث يكون هذا الأمير قد ارتكب منكرًا من المنكرات الدينية، أو كرهه لأمرٍ دنيوي، كمظلمةٍ من هذا الأمير، أو استئثارٍ بحق، أو حرمان حق، ف((من كره من أميره شيئا)) يشمل الكراهة الدينية والدنيوية.

وفي الحديث الثاني قال: ((من رأى من أميره شيئا يكرهه))، هنا كأنه يشير إلى الكراهة القلبية، والرؤية هنا تشمل الرؤية العينية والرؤية العلمية.

وقوله: ((من رأى من أميره شيءً يكرهه فليصبر)) هذا توجيه النبي -ﷺ- أنه إذا رأى منكرا على الأمير فعليه بالصبر. وفي الحديث الثاني بين ذلك وأكده بقوله: ((فليصبر عليه)) أي يصبر على هذا الأمير، وما له من حقوق.

ثم قال: ((فإنه من خرج عن السلطان))، وجاء في الرواية الثانية: ((فإنه من فارق الجماعة)) وهنا نلاحظ الارتباط بين الجماعة وبين السلطان؛ فإن الخروج عن السلطان الذي اجتمعت عليه الجماعة هو خروج من الجماعة، وهناك ارتباط وثيقٌ بين الجماعة وبين السلطان، فلا تكتمل وتتحد الجماعة إلا بوجود السلطان، ومنازعة السلطان هي تفريقٌ للصّفِّ ووحدةِ الجماعة.

قال: ((فإنه من خرج عن السلطان)) يعني من طاعته، والسمع له، وقال: ((فإنه من خرج من السلطان شبرًا)) والمراد هنا المفارقة، وقوله ((فإنه من فارق الجماعة)) المراد بالمفارقة هنا السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير أو السعي في تفرق تلك الجماعة التي اجتمعت على ذلك السلطان أو ذلك الأمير. ثم قال: ((شبرًا)) وكنَّ هنا بمقدار الشبر، يعني ولو كانت المفارقةُ يسيرة.

وهنا ذكر عقوبة ذلك عند الله -ﷻ- فقال: ((مات ميتةً جاهلية)) والعياذ بالله. وجاء في الرواية الأخرى: ((فمات إلا مات ميتةً جاهلية)). فمن مات وهو مفارق لجماعة المسلمين ومفارق لسلطانهم الذي اجتمعوا عليه مات ميتة جاهلية.

ووصف هذه الميتة بالجاهلية هو من باب ما سيق مساق الزجر والتنفير؛ لأن كل أمرٍ جاء وصفه بأنه من أعمال الجاهلية أو من خصال الجاهلية أو من سمات الجاهلية، فليس المقصود منه الكفر والخروج من المِلة، وإنما المقصود منه الزجر والتنفير وهذا ظاهرٌ في النصوص الشرعية. ومعناه التشبيه بميتة أهل الجاهلية، وليس معناه أنه يموت كافرًا.

من فوائد هذا الحديث:

أولًا: تحريم الخروج عن السلطان المسلم ولو جار، أو وقع في شيءٍ دينيٍّ أو دنيوي يكرهه المحكوم منه.

ثانيا: الخروج عن طاعة الإمام المسلم هو من أعمال الجاهلية. وسبق أن إضافة بعض الأعمال والخصال والسمات إلى الجاهلية هو للتنفير منها ولا يعني ذلك الخروج من الملة كما كان حال الجاهلية، وقد جاء في القرآن الكريم وصف بعض الخصال والمراد من ذلك هو التحذير والتنفير والزجر، جاء وصفها بأنها من أمر الجاهلية أو من خصال الجاهلية أو من سمات الجاهلية، فورد في القرآن وصف عدة أمور بأنها في الجاهلية، ومن هذه الأمور التي جاء وصفها بالجاهلية حكم الجاهلية وهو الحكم بغير ما أنزل الله. وقد جاء التوصيف على ذلك في قول الله -ﷻ-: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة:٥٠] فهما حكمان لا ثالث لهما إما حكم الجاهلية أو الحكم بما أنزل الله، ومن أحسن من الله حكمًا لقومٍ يؤمنون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد حكم بحكم الجاهلية، وإن كان في القرن الخامس عشر الهجري، أو الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين الميلادي، أو في أي زمنٍ كان، فكل حكمٍ لا يكون بما أنزل الله فهو حكم الجاهلية. والمراد هنا التحذير والزجر من الالتفات أو تحكيم أو تحاكم إلى غير ما أنزل الله. وهو حكم الطاغوت كما جاء في النصوص.

جاء أيضا: "تبرج الجاهلية"، كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿**وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى**﴾ [الأحزاب:٣٣]. وهذا توجيهٌ قرآني رباني للنساء في التحذير والنهي عن التبرج، وأن التبرج وإن كان في القرن الخامس عشر الهجري هو من سمات الجاهلية، بل الجاهلية الأولى، وهذا فيه من معنى الزجر والردع والتنفير، وهو دليل على حرمة ذلك، فكل

أمرٍ من أمور الجاهلية جاء وصفه في الشرع بأنه من أمر الجاهلية. فالمرادُ النهي والتحذيرُ وتحريم ذلك.

وجاء في القرآن أيضًا "ظن الجاهلية"، كما في قول الله -ﷻ-: ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ [آل عمران:١٥٤] فيظنون بالله غير الحق وهو ظن السوء، وكلُ ظنٍ بالله غير الحق فهو ظن الجاهلية، فظن السوء بالله **-ﷻ-** هو من ظن الجاهلية، وقد ذكر ابن القيم- رحمه الله تعالى- مثالا على ذلك منها وهو أن يظن أن الله لن ينصر أولياءه، ولن يعز دينه، ولن يظهر كلمته، وأن يصاب الإنسان بشيءٍ من القنوط والإحباط؛ فهذا كله من ظن الجاهلية الذي جاء التحذير منه (٦٦) ولذلك ينبغي للإنسان أن يكون متفائلًا بوعد الله **-ﷻ-** والله لا يخلف الميعاد، ووعده منجز لا محالة لكن يتأخر ويبتلي عباده بإدالة العدو عليهم تارة وإدالته على أعدائه تارةً أخرى لحكمٍ يعلمها، وتكون العاقبةُ للمتقين، والنتيجةُ في مصلحة المسلمين، سواء كانت تلك الفتنة عامة أو خاصة، ولنأخذُ مثالًا على ذلك: "قصة الإفك" والإفكُ: افتراءٌ وكذبٌ على مقام النبوة،فبموازيننا نحن، وبمنظارنا الأرضي لا نرى في هذه الحادثة أي صورة من صور الخير البتة، ومع ذلك ينزل الله- تعالى- فيها قرآنا يُتلى إلى قيام الساعة، يقول الله **-ﷻ-** فيه: ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ** ﴾ [النور:١١].

فالله تعالى لا يُقدِّر شرًا محضا، لكن قد تظهر في قدره بعض الجوانب التي لا نراها نحن في صالحنا، ولكن هي في حقيقتها ومآلها هي خيرٌ محض ومن هذا الخير على سبيل المثال ما جاء في رواية رزين عن سعيد بن زيد حين قال لمن نال من كبار الصحابة"لا جَرَمَ لما

(٦٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٠٥).

انقطعتْ أعمارهم: أرادَ الله أن لا يَقْطَعَ الأجرَ عنهم إلى يوم القيامة، والشَّقِيّ من أَبْغَضَهم، والسعيدُ مَن أحبَّهم".(٦٧)

فالشاهد أن ظن الجاهلية هذا من الظنون السيئة وهو اليأس من رحمة الله ﷻ -- ورحمة الله بعباده، وهذه من ظنون الجاهلية المحرمة، ويكفى بذلك تنفيرًا وتحذيرًا أن الله وصفها بأنها من ظن الجاهلية.

ومن المضافات إلى الجاهلية الواردة في القرآن أيضًا "حمية الجاهلية"قال الله-ﷻ-: ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ **[الفتح:٢٦]**. وكلُ تعصبٍ على غير حق فهو من حمية الجاهلية،وهذه من خصال الجاهلية المستمرة فيها الأمة. ووصفها بالجاهلية دليلٌ على تحريمها، وقد جاء في السنة قول النبي-ﷺ-: "**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن** ".(٦٨) وذكر -ﷺ- عدة خصال وعدة أمور من أمر الجاهلية، منها النياحة على الميت، والاستسقاءُ بالنجوم، والفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب فهذه كلها من خصال الجاهلية الباقية في هذه الأمة، ووصفها بأنها من خصال الجاهلية دليلٌ على تحريمها وعدم جواز مقارفتها وإعمالها؛ لذلك قال في الحديث الذي معنا : ((فإنه من خرج عن السلطان شبرًا مات ميتة الجاهلية)). فالمراد من ذلك هو التحذير والتنفير من سلوك هذا المسلك الذي هو من مسالك أهل الجاهلية.

ثالثا: هذا الحديث من ماستند عليه إجماع الفقهاء على وجوب طاعة الإمام المسلم وإن كان متغلبًا، والجهاد معه، وعدم الخروج عليه لما في ذلك من مصالح لحقن دماء المسلمين، وقد نص على هذا الإجماع عدد من العلماء ، ومقتضاه عدم جواز الخروج على الإمام المسلم،

---

(٦٧) جامع الأصول (٨/ ٥٥٨).

(٦٨) صحيح مسلم. باب التشديد في النياحة. ٢٢٠٣ (٣ / ٤٥).

حتى وإن جار أو تغلب، ولم يُستثن من حالة وقوعه في الكفر الصُراح، كما في حديث عباد بن الصامت الذي سيأتي -إن شاء الله- في آخر الباب،فلا تجوز طاعته، بل تجب مجاهدته عند القدرة على ذلك، ولا تجب المجاهدة إلا عند القدرة على ذلك، وإلا فعلى المسلم أن يصبر حتى يستريح برٌ أو يُستراح من فاجر.

ويؤيد هذا الاستثناء ما جاء في بعض الأحاديث المتقدمة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : ((لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما قادوكم بكتاب الله، لا ما صلوا)) فمن خلال هذه الأحاديث، وعمومِها نأخذ الدلالة على عدم جواز الخروج على الإمام وإن ظلم وإن خان وإن ارتكب بعض المنكرات التي لا تخرجه من دائرة الإسلام.

بعد هذا الحديث أورد المصنف رحمه الله حديث جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قال:"**دخلنا على عبادة بن الصامت –رضي الله تعالى عنه– وهو مريض قلنا أصلحك الله حدث بحديثٍ ينفعك اللهُ به**". ولعل هذا الدخول من أجل زيارة عبادة – ﷺ– أو لغرض من الأغراض الأخرى كالتفقه عليه، وهذا دليل على حرصهم على حفظ أحاديث النبي-ﷺ- فكانوا يفرحون إذا وجدوا أحدًا من صحابة رسول الله -ﷺ- ليعلمهم بعض أحاديث النبي -ﷺ- فكان من هؤلاء عبادة بن الصامت، وكان في مرضه ،وكانوا يعودونه، وهو – ﷺ– هو أحد النقباء في بيعة العقبة وقد شهد البيعات الثلاث، والثالثة فيها خلاف، ونص عليها الحافظ بن عبد البر رحمه الله.

وقوله: "فقلنا أصلحك الله" **هذا يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادوا الدُّعَاءَ لَهُ بِالصَّلَاحِ فِي جِسْمِهِ لِيُعَافَى مِنْ مَرَضِهِ أَوْ هو أَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ كَلِمَةٌ اعْتَادُوهَا عِنْدَ افْتِتَاحِ الطَّلَبِ** ، وتعنى الدعاء فهنا ابتدءوا الدعاء له –ﷺ– بالدعاء له بالصلاح، والصلاح هنا يشمل صلاح الدنيا والآخرة، ومن الصلاح الدنيوي صلاح جسده بشفائه مما هو فيه من المرض – ﷺ– ، والدعاء بالصلاح يدعى به للكبير والصغير، وللصالح وللطالح، وليست فيه منقصة للكبير– كما يدعى بعض الجهلة الذين يدّعون أنه لا يُدعى بالصلاح إلا لمن كان صغير السن، فهذه

دعوة موهومة لا حقيقة لها وإنما الدعاء بالصلاح يحتاجه الكبير والصغير كالدعاء بالهداية، وقد شرع الله لنا أن نقرأ في كل ركعة من ركعاتنا ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ **[الفاتحة:٦]**، فما أحوجنا إلى الهداية والصلاح.

وقد أدرك رضي الله عنه ما يحتاجون إليه، فحدثهم بهذا الحديث، وإذا سئل الإنسان عن شيء من العلم الشرعي لا يجوز له كتمه إذا كان في ذلك مصلحة ولا يترتب على ذلك مفسدة، فقال مستجيبًا لطلبهم: "**دعانا النبي – – فبايعناه**" وذلك ليلة العقبة كما جاء مصرحًا به في أوائل كتاب صحيح البخاري –رحمه الله تعالى– والبيعة هنا هي البيعة على السمع والطاعة، وبيعة النبي **-ﷺ-** للصحابة كانت على أنواع، فمهنا بيعة على الإسلام، وبيعة على الجهاد، وبيعة على الموت، وبيعة على عدم الفرار، وبيعة على ألاّ نسأل الناس شيئًا، فهي خمس صور من مبايعات الصحابة للنبي **-ﷺ-** والبيعة العظمى والأولى هي على الإسلام، وهذه بايع عليها النبي **-ﷺ-** كل من دخل في الإسلام وكذلك الهجرة.

أما البيعة على الجهاد فهي بيعة خاصة في الأحوال الخاصة، وكذلك البيعة على الموت وعدم الفرار في ملاقاةِ العدو، وهذه الصور الثلاث كلها متعلقة بالجهاد. أما البيعة على ألاّ نسأل الناس شيئًا، فالمقصود بهذه البيعة هو أن يستغنى الإنسان بالله قدر الإمكان؛ ولذلك تسامى الصحابة –رضوان الله عليهم– بهذا التوجيه النبوي، فكان أحدهم يسقطُ السوط من يدِه وهو على فرسه وعلى دابته، فلا يقول لأحدٍ ممن يمشي ناولني السوط، وإنما يُوقف دابته وينزل فيأخذ سوطه بيده،؛ لأنهم بايعوا النبي **-ﷺ-** على ألاّ يسألوا الناس شيئًا" يقول راوي الحديث فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ.**(٦٩)**

فينبغي للإنسان أن يستغني بالله **-ﷻ-** قدر الإمكان ويستعين بالله –ﷻ– في كل أموره، ولا يلتفت إلى أحد من الناس حتى في الأمور المباحة، ولا شك أن ذلك من قوة الإيمان واليقين.

(٦٩) رواه مسلم– كتاب الزكاة– بَابُ كَرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ ١٠٤٣ (٢/ ٧٢١).

قوله: "فقال فيما أخذ علينا" القائل هو عبادة واختصر الحديث هنا -رضي الله تعالى عنه- فقال: **"أن بايعنا على السمعِ والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا"**. وهذا يؤخذ منه المبايعة على السمع والطاعة في جميع الحالات، لا إن أُعطي رضي وسمع وإن لم يُعط سخط وخرج، بل مادام أنه أعطى صفقة يدِهِ لإمامهِ فإنه يجبُ ألاّ تُؤثر المواقف وتغيّر الأحوال عن الوفاء بعقد هذه البيعة؛ وقد أكد هذا المعنى بقوله: "في منشطنا ومكرهنا" أي في ساعة النشاط والفرح والرضا، وفيما يقابلها من أحوالٍ يكره الإنسانُ فيها من أميره بعض الأمور، وبعض التصرفات، وبعض المنكرات.

وقال: "**عسرنا ويسرنا**" أي في حال السراء والضراء، ثم أردف ذلك بقوله: "**وأثرةً علينا**" وهذا هو الشاهد من هذا الحديث، ومناسبته للباب جلية وواضحة، فالأثرة هي الاستئثار ببعض الحقوق، ومنع الحقوقِ عن أهلها ولا ينفرط عقد البيعة اللازم بحصول تلك الأثرة.

وقال: "**وألا ننازع الأمر أهله**" أي ألا ننازع الولاة في ولايتهم، وما بايعناهم عليه، فإنهم بالبيعة صاروا هم أهل الأمر وأولي الأمر، ما لم يعلم فيهم الكفر البواح فعندئذ لا طاعة لهم ؛ لأن الطاعة في المعروف فقط،والنبي -ﷺ- قال: " **لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل**"(٧٠) وقال: "**إنما الطاعةُ في المعروف**".(٧١) فهذه البيعة مُلزمة إلا إذا وصل الأمر إلى حد الكفر البواح، دون الكفر الظني، كأن يتلبس الإمام بأمر كفري مشكوك فيه غير مُتيقن ، فقوله: "إلا أن تروا كفرًا بواحًا" تأكيد لذلك ، ومعنى بواحًا أي ظاهرًا، واضحًا، لا لبس فيه ولا غموض ولا شك، وأكد ذلك أيضًا بقوله: "عندكم من الله فيه برهان" أي

---

(٧٠) رواه أحمد في المسند ١٠٩٥ (٢/ ٣٣٣).

(٧١) رواه البخاري- كتاب أخبار الآحاد-بَابُ مَا جَاءَ فِي إِجَازَةِ خَبَرِ الوَاحِدِ الصَّدُوقِ فِي الأَذَانِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَالفَرَائِضِ وَالأَحْكَامِ ٧٢٥٧ (٩/ ٨٨) ومسلم- كتاب الإمارة - بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ ١٨٤٠ (٣/ ١٤٦٩) .

دليل، وبرهان وأمور ثابتة قطعية لا تقبل الشك، وعند ثبوت هذا الكفر فقط تنتقض بيعة الإمام، لكن تبقى قضية الخروج عليه والحال هكذا، متوقفة على القدرة المتيقنة، فإن كان المسلمون قادرين على إزاحته وتولية المسلم، فهذا هو الواجب عليهم، وإن كانوا في مرحلة ضعفٍ، أو ظنوا أنه سيترتب على ذلك من المفاسد ما هو أعظم، فالواجب الصبر عليه حتى يستريح برٌ أو يُستراح من فاجر.

من فوائد هذا الحديث:

أولًا : مشروعية البيعة ووجوب الوفاء فيها في جميع الحالات أخذا من قوله "**في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا**" فهذه إشارة إلى اختلاف الأحوال.

ثانيا: تحريم منازعة أولي الأمر أمرهم؛ لأن منازعتهم هي أكبر أسباب وقوع الفتن، وإراقة الدماء، وتفرق الصّف، واختلاف كلمة المسلمين، والإسلامُ إنما جاء بمقاصد جليلة منها جمع الكلمة، وتوحيد الصف، واجتماع الأمة، حتى وإن كانت هناك بعض الثغرات، وبعض الأمور التي ينكرها المسلم وهي منكرة ولا شك، ولا يرضاها الله -ﷻ- لكن إيثار المصلحة العامة تقتضي تحمُّل المفاسد الصغيرة، أو المفاسد التي هي دون ذلك، سواء كان ذلك في الحقوق الخاصة كالحقوق المالية وبعض المظالم أو عامة كوقوع الإمام في بعضِ المنكرات الظاهرة التي لا تصل إلى درجة الكفر.

ثالثا: تحريم هذه المنازعة ليس على إطلاقِه، بل يستثنى منه حالة وجود الكفر؛ فإذا وقع ولي الأمر في الكفر، فإنه تشرع منازعته، وتسقط وتنتقض بيعته بشرط ألّا يكون كفره مظنونا أو مشكوكا فيه بل لا بد من تحقق شرطين أساسين مهمين، وهما أن يكون هذا الكفر بواحا أي ظاهرًا جليًا ليس ظنيًا ولا مشكوكًا فيه. فهو ظاهر وبيّن، وأن يكون عند المنازعين لهم عليه برهانٌ من الله -ﷻ- وليس مجرد شكوك أو ظنون أو لوازم، لأن كثيرًا من الناس اليوم يكفِّرون باللوازم، واللازم ليس بلازم، فهو وإن كان يدل على خطورة الأمر، إلا أنه لا يجوز الحكم به؛

لأن التكفيرَ في الشريعة الإسلامية أمره عظيم، وجاءت النصوص الصريحة في التحذير من إطلاقه، فهو أمرٌ شرعي لا يقوم به ولا يُفتي فيه ولا يحكم به إلا الراسخون في العلم الشرعي، وينظرون إليه من جهتين، الأولى: من جهة توفر المكفِّر؛ بأن يكون هذا الأمر حقا من المكفرات الشرعية، لوجود أدلة وبراهين شرعية تدل على كونه مكفرا، والجهة الثانية: انتفاء الموانع، فقد يتلبس المرءُ أحيانًا ببعض المكفرات، ولكنه لا يكفر لوجود موانع تمنع من إطلاق الكفر عليه، ومن تلك الموانع الجهل إذا كان مَن مثله يجهل ذلك، ومنها الإكراه، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل:١٠٦] ومن الموانع التي تمنع من إطلاق الكفر ألاّ يكون عن تأوُّل، بأن يكون متأولًا في أمور لها بعض الوجاهة فيكون ذلك مانعًا من موانع التكفير؛ ولذلك نلاحظ أن أهل السنة والجماعة الذين استمسكوا بالآثار النبوية في النصوص وكتاب الله وسنة نبيه -ﷺ- هم أبعد الناسِ عن إطلاقِ التكفير على المسلمين؛ وخاصةً بالنسبةِ لولاتهم، لما يترتب على ذلك من اللوازم، ومن الأمور الكبيرة التي تنبني على ذلك، وقد جاءت النصوص في التحذير من إطلاق التكفير والتوسع فيه، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: **"من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما" (٧٢)**فمن أطلق الكفر على مسلمٍ فهو إما أن يكون كذلك كما أطلق، وإما أن يعود الأمر عليه هو –والعياذ بالله–وكفى بذلك تحذيرًا وتنبيهًا من خطورةِ الدخول في مثل هذه الأمور وما يرتبُ عليها.

الشاهد أنه هنا قال: ((إلا أن تروا كفرًا)) فالكفر هذا يجب أن يكون بواحا ظاهرًا بينًا، والأمر الثاني: ((أن يكون عندكم من الله فيه برهان)). ومع وجود الكفر البواح الذي عندنا من الله فيه برهان، فلابد من توفر شروطٍ أخرى دلت عليه النصوص الأخرى وهو القدرة والاستطاعة، فغير القادر ليس مكلفا أصلًا، ومن الشروط ألاّ يترتب على ذلك مفسدة

(٧٢) رواه البخاري– كتاب الأدب– بَابُ مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ ٦١٠٤ (٨/ ٢٦) ومسلم– كتاب الإيمان– بَابُ بَيَانِ حَالِ إِيمَانِ مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ ٦٠ (١/ ٧٩).

أعظم من مفسدة ذلك الكفر الذي ارتكبه ذلك الشخص، وهذه هي الأمور التي يجب التنبه لها خاصةً في مثل عصرنا الحاضر الذي كثر فيه الغلو، وكثر فيه الشطط في ذات اليمين، وذات الشمال. فهناك من غلا في التكفير حتى صار يكفِّر بما ليس بمكفِّر، وتلبّس ببعض خصال الخوارج الذين حذر منهم النبي -ﷺ- في مقابل أن هناك من مَيَّع قضية التكفير بالكلية، حتى منع من تكفير اليهود والنصارى الذين كفرهم الله -ﷻ- وكفرهم النبي -ﷺ- والأمر ليس بالتشفي ولا بالآراء إنما هو بالأحكام الشرعية والنصوص الشرعية. فمن ارتكب مكفرًا واضحًا لا لبس فيه وعليه الأدلة الشرعية فنقول إن هذا الفعل كفرٌ.

أما بالنسبة للمعيَّن فلا يمكن أن يطلق الكفر في المعيّن إلا من كان يملك أهلية التثبت من توفر الشروط المكفِّرة وانتفاء الموانع ولا يكون ذلك إلا لأهل الرسوخ في العلم أو القضاة الذين يملكون أدوات التثبت من ذلك الفعل.

أما أن يكون ذلك مطية كل من هبّ ودبّ من الجهلة الذين ليس عندهم من العلم شيء ولا يملكون أهلية مثل هذه الأشياء فهذه من الفتن التي وقعت في زماننا هذا.

وهناك في المقابل من كانت عنده ردة فعل من الطرف الآخر فأنكر وجود بعض الأمور الكفرية فتجرأ على المعاصي وشكك في كفر اليهود والنصارى وادعى أنهم من المؤمنين بالله إلى غير ذلك من الأمور، وهذا بلا ريب تكذيب صريحٌ لنصوص الكتاب والسنة الواضحة التي جاءت في بيان هذا.

والصواب أن يجتهد المسلم فيما يُصلح شأنه، ويبتعد عن الخوض فيما لا طائل من ورائه من الشبهات ، أما الأمور التي لا تعنيه فليوصل أمرها إلى من يعنيه الأمر ويسلم بذلك دينه، ويسلم مما يترتب عليه مثل هذه الجرأة ويكفينا في ذلك ما ذكره أبو الدرداء –رضي الله تعالى عنه– وهو المنهج الذي يجبُ أن يحرص عليه المسلم، يقول: " إِنَّ اَلْفَقِيهَ كُلَّ اَلْفَقِيهِ مَنْ لَمْ

يُؤَيِّسْ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اَللَّهِ، وَلَمْ يَدْحَضْهُمْ فِي مَعَاصِي اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ".(٧٣) فبعض الناس أخذ بجانب الغلو فقنّط الناس من رحمة الله -ﷻ- أو حكم عليهم بالكفر أو غير ذلك من الأمور في مقابل أن من الناسِ من سهّل للناس الوقوع في المعاصي والمنكرات. فالواجب على المسلم أن يبتعد عن هذا وعن ذاك، فقد جاءت نصوص الوعيد لردع الناس عن المعاصي والوعيد حق كما أن الوعد حق، وجاءت نصوص الوعد لقطع الخط عن الغلاة الذين يقنطون من رحمة الله -ﷻ- والحق وسطٌ بين طرفين.

الحديث السادس: حديث أسيد بن حضير - ﷺ- قال الإمام البخاري-رحمه الله- يقول: " **حدثنا محمد بن عرعرة قال: حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك** - ﷺ- **عن أسيد بن حضير** - ﷺ- **يقول أن رجلاً أتى النبي** - ﷺ- **فقال: يا رسول الله: "استعملت فلاناً ولم تستعملني؟"** فقال صلى الله عليه وسلم: ((**إنكم سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني**)).

راوي الحديث هو أسيد بن حضير رضي الله عنه وهو من كبار الصحابة ومن فضلائهم ومن قرائهم وهو الذي كانت الملائكة تستمع لقراءته في جوف الليل- ﷺ-.

قوله : "أن رجلًا أتى النبي - ﷺ-" في هذه الرواية أبهم اسم الرجل وأبهم اسم طالب الولاية، والمولَّى، وهذا ما يسمى بأسلوب التجريد، فيُجرّد الخبر من الأسماء؛ لوجود مصلحة مّا في إبهام الأسماء وعدم ذكرها.

وجاء في بعض الروايات أن الذي طلب الولاية هو أسيد بن حضير نفسه - ﷺ- وأن المولَّى الذي استعمله النبي - ﷺ- هو عمرو بن العاص- ﷺ- .

قوله: "استعملت فلانًا ولم تستعملني" هذا أسلوب عرض يعنى هلا استعملتني كما استعملته وتوليني عملا من أعمالك يا رسول الله، والوالي في عرف المتقدمين في الصدر الأول للأمة يسمّى عاملًا ، وكل من كُلّف بمنصب من المناصب يسمى عاملًا ومنه قوله تعالى:

(٧٣) أصول السنة لابن أبي زمنين ١٨٣ (ص: ٢٦٢).

﴿**وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** ﴾**[التوبة: ٦٠]** في مصارف الزكاة الذين يقومون على شئون الزكاة، وسمي عاملا لأن القصد في الولايات في الإسلام هو التكليف وليس التشريف؛ والعامل يكلف بخدمة المسلمين ونفعهم والقيام على ما يصلح شأنهم وليست القضية قضية تشريف وتكبّر.

قوله – ﷺ– :"**إنكم سترون بعدي أثرة**" يعنى سترون بعدي أكثر من هذا وأراد النبي – ﷺ– هنا نفي الظن أنه آثر من ولّاه عليه بذلك المنصب لأجل قرابة، أو من أجل مصلحة شخصية، وإنما كانت الولاية في عهد النبي – ﷺ– وفي عهد خلفائه بحسب الأصلح، والمصلحة، لا بحسب قرابة ولا بحسب المنفعة الشخصية للمولَّى ، خلافا لما سيكون في المستقبل كما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله:" **إنكم سترون أثرة**" وقد ذلك كما أخبر، وأدرك بعض الصحابة ذلك ، والأثرة إيثار غير الصالح أو من لا تكون المصلحة بتوليته على غيره ممن اكتملت فيه شروط الولاية، من أجل قرابة أو منفعة شخصية أو لغير ذلك من الأمور ، وعندما ولى النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص– ﷺ– لم يوله لمصلحة شخصية وإنما ولاه لأن المصلحة العامة تقتضي ذلك والتولية على المناصب لا تعنى أن يكون ذلك هو الأفضل؛ لأنه قد يكون الأصلح هو تولية المفضول مع وجود الفاضل؛ وهذا ما كان في عهد النبي– ﷺ– ؛ فقد ولى أسامة بن زيد –رضي الله عنهما– على جيش فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهم — للمصلحة المترتبة على ذلك تقتضى،ولم يخص أحدا ممن ولاه لمصلحة شخصية، وإنما للمصلحة العامة فقط .

ولا ينبغي أن يولّى إلا من جمع بين خصلتين وهما القوة والأمانة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾**[القصص:٢٦]** القوي في نفسه، الأمين في تصرفاته، وما تحت يده، فإذا تحققت في الوالي هاتان الخصلتان وهاتان الصفتان، وهي القوة في الأداء والأمانة في التصرف كان هذا هو الأمثل والأصلح وهذا ما كان متوفرًا في عمرو بن العاص رضي الله عنه وفي جميع من ولاهم النبي – ﷺ–.

والنبي – ﷺ– أراد هنا أن يهون على أسيد مع منزلته ومكانته فقال: "إنكم سترون بعدي أثرة" فاستبسط له هذا الأمر وأخبره بما سيكون لاحقا، واستشاره أسيدٌ في الموقف المناسب

عند حصول، فأرشده بقوله: ((**فاصبروا حتى تلقوني**)) **أي فاصبروا على هذه الأثرة** وعلى الاستئثار في الحقوق وعلى الاستئثار في المناصب وغير ذلك من الحقوق حتى تلقوني.

من فوائد هذا الحديث:

أولاً: أن الأصل في الولايات هو النظر للمصلحة العامة واتخاذ الأصلح للولاية، ولا يلزم بذلك أن يكون الأفضل فقد يولى المفضول مع وجود الفاضل لمصلحة يقتضيها ذلك العمل.

ثانيا: ذم الاستئثار ،كما هو مفهوم من قول النبي – ﷺ– "إنكم سترون بعدي أثرة" فهذا الخبر من النبي – ﷺ– يفهم منه إنكار ذلك الأمر؛ لأن الأثرة هي تولية غير المستحق وترك المستحِق والاستئثار في الحقوق، وهذه كلها من المظالم التي لا تجوز ففي ذم الاستئثار، وتقديم غير الأكفاء والأصلح لأغراض دنيوية، فيقدم الإنسان قريبه أو ابنه أو رفيقه لمصلحة ومنفعة خاصة ، بينما الواجب تقديم الأصلح والأنفع ولا يلزم من ذلك كما قلنا الأفضل وإنما الأصلح.

ثالثا: إن الأثرة ليست واقعة في زمان النبي – ﷺ– ولا زمن الخلفاء الراشدين الأربعة الذين هم على منهاج النبي– ﷺ– كما هو المستفاد من قوله: "إنكم سترون" يعنى ما يأتي في زمان المستقبل ، وقد وقع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بعد الخلافة الراشدة.

رابعا: التوجيه النبوي بلزوم الصبر عند وجود الأثرة والاستئثار بالحقوق والولايات وغيرها، فاللازم والمتعيّن هو الصبر؛ لأن الأثرة ليست مسوغًا شرعيًا لنزع البيعة، ونزع يد الطاعة.

خامسا: الوعد للصابرين مع وجود الأثرة بالعوض الأخروي،فالنبي – ﷺ– لم يعدهم بعوض دنيوي إنما ربطهم بالآخرة – ﷺ– وهكذا ينبغي أن تكون نظرة المسلم فتكون بعيدة فالدنيا مرحلة قصيرة وسينتقل منها الإنسان شاء أم أبى ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾ **[العنكبوت: ٦٤]** فيجب أن تكون نظرة المسلم نظرة بعيدة إلى ما بعد هذه الحياة الفانية القصيرة فالنبي – ﷺ– هنا وعد الصابرين بالعوض الأخروي، ولم يعدهم بعوض دنيوي، فينبغي أن لا يكون همّ المسلم الحقوق الدنيوية فقط فالأثرة من الأمور الدنيوية، والمهم هو

الدين فإذا سلم سلم رأس المال ، وعلى المسلم أن يحتسب ما يفقده من مصالح في الدنيا ليجد عوضها عند الله –ﷻ– يوم القيامة.

سادسا: من فوائد الحديث التربوية ما ورد فيه من إبهام اسميْ هذين الرجلين، لأن أن ذكر الأسماء في بعض الأخبار قد لا يكون فيه مصلحة بل قد تكون في ذكر هذه الأسماء مفسدة، ولذلك يحصل في عدم ذكر الأسماء في الأخبار إلا ما كان في ذكرها مصلحة، أما إذا لم يكن ثمة مصلحة أو يترتب على ذلك مفسدة فالمشروع عدم ذكر الأسماء وعدم التصريح بها، وهكذا كان هدي النبي – ﷺ– **حيث كان يقول يعمم فيقول على سبيل المثال "ما بال أقوم"** كما فعل في قصة الثلاثة الذين تقالّوا عبادته(**٧٤**) ولم يصرح بأسمائهم وهذه من حكمته–ﷺ–

وعلينا أن نتبع هديه – ﷺ– في عدم التصريح بالأسماء إذالم يكن ثمة مصلحة أو يترتب علي ذلك مفسدة كما فعل أسيد رضي الله عنه هنا فأسيد–رضي الله عنه– أبهم أسمه وأبهم اسم المولَّى وهو عمرو بن العاص–رضي الله عنه–؛ لأنه لا ثمرة ولا مصلحة في ذكر هذه الأسماء.

ونحو صنيعه فعل الصحابة رواة قصة صاحبي القبرين الذين قال فيهما النبي – ﷺ–: ((**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة بين الناس**)) (**٧٥**)، فصاحبا القبرين معروفان، ولكن الرواة أبهموا أسماءهم سترًا عليهم لأنه لا مصلحة في ذلك ولم تذكر لنا هذه الأسماء، وكذلك في قصة الأنصاري الذي تخاصم مع الزبير في شأن سقي الماء، فلم يرض بحكم النبي صلى الله عليه وسلم وقال للنبي –ﷺ– "أن كان ابن عمتك"(**٧٦**) فالصحابة لم يذكروا اسم هذا الأنصاري من باب الستر

---

(٧٤) رواه البخاري–كتاب النكاح– بَابُ التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ٥٠٦٣(٧/ ٢) ومسلم–كتاب النكاح– بَابُ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مُؤَنَهُ، وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ ١٤٠١(٢/ ١٠٢٠).

(٧٥) أخرجه البخاري–كتاب الوضوء– بَابُ مَا جَاءَ فِي غَسْلِ البَوْلِ٢١٨(١/ ٥٤) ومسلم–كتاب الطهارة– بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى نَجَاسَةِ الْبَوْلِ وَوُجُوبِ الاَسْتِبْرَاءِ مِنْهُ٢٩٢(١/ ٢٤٠).

(٧٦) صحيح البخاري–كتاب المساقاة– بَابُ سَكْرِ الأَنْهَارِ ٢٣٥٩(٣/ ١١١) ومسلم–كتاب الفضائل– بَابُ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٣٥٧(٤/ ١٨٢٩).

عليه، فمن الآداب النبوية أن الأسماء لا يصرح بها إلا إذا كان ثمة مصلحة وإلا فالأصل هو الستر وعدم إعلائها.

سابعا: مشروعية دفع الظن السيئ بالتصريح بالحقيقة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عندما رآه رجلان ومعه صفية فأسرعا في المشي، ودفعاً لظن السوء ووساوس الشيطان، قال لهما: ((على رسلكما إنها صفية)) (**٧٧**)وقوله-ﷺ- "**إنكم سترون بعدي أثرة**" يدل على رفع التوهم في نفس أسيد-رضي الله عنه- مما قد يتوهمه من أن النبي-ﷺ- قد قدم عليه من لا يستحق التقديم وآثره لمصلحة شخصية وبيّن أنه يؤثر أحدً على أحدٍ لمصلحة شخصية، وإنما من أجل المصلحة العامة، والمصلحة الشرعية فدفع الظنة عن نفسه-ﷺ- بقوله: "**إنكم سترون بعدي أثرة**" .

ثامنا: ذم النبي-ﷺ- للأثرة وقد بيّن في أحاديث أخرى **أن من أشراط الساعة إسناد الأمر إلى غير أهله، حيث قال: ((إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة)) (٧٨)** أي إذا حصلت الأثرة، ومن صور تلك الأثرة إسناد الأمر إلى غير أهله فيوَلَّى غير الأكفاء ويُترك الأكفاء.

---

(٧٧) رواه البخاري- كتاب الاعتكاف- بَابٌ: هَلْ يَخْرُجُ المُعْتَكِفُ لِحَوَائِجِهِ إِلَى بَابِ المَسْجِدِ ٢٠٣٥(٣/ ٤٩) ومسلم- كتاب السلام- بَابُ بَيَانِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ رُئِيَ خَالِيًا بِامْرَأَةٍ وَكَانَتْ زَوْجَتَهُ أَوْ مَحْرَمًا لَهُ أَنْ يَقُولَ هَذِهِ فُلَانَةُ لِيَدْفَعَ ظَنَّ السُّوءِ بِهِ ٢١٧٥(٤/ ١٧١٢).

(٧٨) رواه البخاري- كتاب العلم- بَابُ مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِي حَدِيثِهِ، فَأَتَمَّ الحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ ٥٩(١/ ٢١).

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلاَكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ أُغَيْلِمَةٍ سُفَهَاءَ»

"حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال أخبرني جدي قال: كنت جالسا مع أبي هريرة في مسجد النبي -ﷺ- بالمدينة ومعنا مروان قال أبو هريرة سمعت الصادق المصدوق يقول هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش فقال: مروان لعنة الله عليهم غلمة فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا عسى هؤلاء أن يكونوا منهم قلنا أنت أعلم"

بعد أن ذكر الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في كتاب الفتن باب قول النبي-ﷺ- "سترون بعدي أمورا تنكرونها" وذكر حديث **"اصبروا حتى تلقوني على الحوض"** وحديث**"سترون بعدي أثرة"** ذكر بعد ذلك صورا من صور الأثرة وآثارها فعقد باب قول النبي-ﷺ- **هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء"** ليبين صورة من صور الأثرة وهي توسيد الأمر إلى غير أهله ، وقد أخبر النبي -ﷺ- بذلك إخبار منكرٍ ومحذّرٍ منه -ﷺ- وقد هذه العلامة من علامات الساعة كما أخبر -عليه الصلاة والسلام-.

قوله: **"باب قول النبي -ﷺ- هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء"** هذه الترجمة للإمام البخاري اقتبسها من نص الحديث وإن لم يكن بلفظ الرواية التي ساقها وهذا من فقهه -رحمه الله تعالى- لأنه قد يذكر متنًا ليس على شرطه إما معلقًا وإما في الترجمة ولا يذكره مسندًا إلا إذا كان على شرطه -رحمه الله تعالى- فهنا قال: "باب قول النبي-ﷺ- **هلاك أمتي على**

يدي أغيلمة سفهاء" ولفظ المتن الذي ساقه"هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش" ونص الترجمة جاء في بعض النسخ للبخاري وهو ثابت في الرواية التي ذكرها البخاري –رحمه الله تعالى– وجاء عند أحمد "**إن هلاك أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش**"(**٧٩**) فجمع بين وصفهم بالغلمة ووصفهم بالسفهاء وكونهم من قريش.

وقوله: "**أغيلمة**" هذا تصغير غِلمة، وهي جمع غُلام، والغلام يطلق على الصغير من ولادته إلى حين البلوغ، والتصغير هنا للتحقير، إما لصغر أسنانهم أو لصغر عقولهم أو لصغرهما معا فهم سفهاء، يؤيد ذلك رواية أحمد المتقدمة: "**على يد غلمة سفهاء**"(**٨٠**) فالسفاهة لصغر عقولهم والغلمة لصغر أسنانهم وقد جاء نص الترجمة ليجمع بين الأمرين فقال : "**أغيلمة**" إشارة إلى صغر أسنانهم ، وقال: " **سفهاء**" إشارة إلى صغر عقولهم، وقلة الحكمة والحلم لديهم ، وتولية أمثال هؤلاء لا شك أنه يكون سببًا في هلاك الأمم وفقدان السلم ،ولذلك ذكر الإمام البخاري –رحمه الله تعالى– هذا الباب في كتاب الفتن التي تفسد الأمن والسلم ، فمن أسباب الفتن تولية من لا يستحق الولاية، وهذا تطبيق عملي واقعي للأثرة، فإذا وُسد الصغار في عقولهم وأحلامهم أو في أسنانهم فإن هذا أدعى لوقوع الهلاك والدمار نسأل الله العافية.

بعد هذه الترجمة ذكر البخاري رحمه الله حديثًا واحدًا وهو حديث أبي هريرة، فقال: "**حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال أخبرني جدي**" جده المذكور في السند هنا هو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص–رضي الله عنه–.

---

(٧٩) مسند أحمد ٧٨٧٢ (١٣/ ٢٥٦).

(٨٠) تقدم تخريجه.

يقول :"كنت جالسا مع أبي هريرة" وذلك في زمن معاوية-رضي الله عنه- بعد انتهاء الخلافة الراشدة، ثم حدد المكان الذي كان جالسًا فيه **فقال: "في مسجد النبي** -ﷺ- **في المدينة"** ونلاحظ هنا أنه نسب المسجد إلى النبي -ﷺ- مع أن الله-عز وجل- يقول ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾ **[الجن:١٨]** فعلمنا أنه يجوز أن ينسب المسجد إلى من بناه أو إلى إمامه أو إلى جاره المشهور أو إلى غير ذلك فذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾إذ المعنى هو أن المساجد إنما بنيت لعبادة الله ولذلك قال -عز وجل- ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾**[الجن:١٨]** وإضافتها إلى الله إضافة تشريف وتعظيم لهذه البيوت، قال تعالى ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ*رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾**[النور:٣٦-٣٧]**.

قوله: "قال ومعنا مروان" يعنى كان في المجلس معهم مروان بن الحكم -رضي الله عنه- وكان يلي إمرة المدينة في زمن معاوية-رضي الله عنه- وتارة تكون إمرة المدينة في يد سعيد بن العاص والد عمرو راوي هذا الحديث .

قوله :"**سمعت الصادق المصدوق**" ابتدأ أبو هريرة -رضي الله عنه- الحديث بهذه الجملة ويعنى بذلك النبي-ﷺ- فهو الصادق في قيله ونفسه -ﷺ- والمصدوق عند الله -عز وجل- فهو صادق مصدَّق ومصدوق: أي أن الله مصدِّقه ومؤيّده فيما يقول ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾**[النجم:٣-٤]** .

قوله: " **قال هلكة أمتي على يد غلمة من قريش** " أي هؤلاء هم الذين يكون هلاك أمتي على أيديهم، وقد جاء عن أبي هريرة أنه قال " **تعوذوا من إمارة الصبيان** "**(٨١)** والحديث هنا فيه أنهم غلمان من قريش وليس فيه وصفهم بالسفاهة وإنما هو مستفاد، من قوله: "**أعوذ بالله من إمارة الصبيان" قالوا وما إمارة الصبيان؟ قال: "إن أطعتموهم هلكتم** -يعنى في

(٨١) رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٨٣٢٠ (١٤/ ٦٨).

دينكم- **وإن عصيتموهم أهلكتموهم**" فهؤلاء الصبيان الغلمة الذين يكونون سبباً في فساد الأمة يأمرون بالمعصية فإن أطاعوهم الناس وقعوا في غضب الله -ﷻ- وافتتنوا في دينهم، وإن عصوهم قتلوهم فكان أبو هريرة -رضي الله عنه- يدرك ذلك وكان يتعوذ من **سنة الستين وإمارة الصبيان** "(٨٢) وسنة الستين هي بداية تولية معاوية وقد استجاب الله -تعالى- دعاء أبي هريرة وتوفاه الله في سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين أي قبل الستين فلم يدرك سنة الستين ولم يدرك إمارة الصبيان التي بدأت من يزيد بن معاوية ومن جاء من بعده، وهذا الأمر من المغيبات التي لا تعلم إلا بالوحي وقد جاء عن جابر أيضًا أن النبي -ﷺ- قال لكعب بن عجرة رضي الله عنه: "**أعاذك الله من إمارة السفهاء"، قال وما إمارة السفهاء قال: "أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهدي ولا يهتدون بسنتي فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يريدون علي الحوض ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيريدون علي الحوض** "(٨٣) والجمع بين حديث كعب وحديث أبي هريرة هو أنهم قد يكونون كبارًا في السن ولكنهم صغارٌ في العقول والأحلام، سفهاء لا يستنون بسنته-ﷺ- ولا يهتدون بهديه -ﷺ- وقد بين لنا صلى الله عليه وسلم المخرج والتعامل لمن ابتلاه الله -ﷻ- وأدرك مثل هذه الإمارة من إمارة السفهاء **فقال: " فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يريدون علي الحوض ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيريدون علي الحوض** " وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني فهو حديث صحيح ومر معنا لما في حديثنا عن الحوض.

---

(٨٢) رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٨٣٢٠ (١٤/ ٦٨).

(٨٣) رواه أحمد من حديث جابر رضي الله عنه ١٤٤٤١(٢٢/ ٣٣٢).

قوله: **"هلكت أمتي على يد غلمة من قريش فقال مروان وهو أحد هؤلاء الجالسين في مسجد النبي-ﷺ- قال مروان لعنة الله عليهم غلمة"** فدعا عليهم مروان باللعنة، واللعنة هي: الدعاء بالطرد والإبعاد من رحمة الله-ﷻ- ولم يلعنهم أبو هريرة -رضي الله عنه- وهذا يقتضى منا أن نشير إشارة موجزة إلى حكم اللعن وهدي النبي-ﷺ- فيه ، فاللعن في هدي النبي -ﷺ- يكون بالوصف وبالعموم لا بالتعيين والأشخاص ، لأن المسلم ليس باللعان ولا الطعان ولا بالفاحش البذيء، كما في الحديث(٨٤) بل يجب على المسلم أن يبتعد عن اللعن والسّب ونحوها كما فعل أبوهريرة رضي الله عنها، وقد كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في لعن من يستحقه التعميم لا التعيين مثل قوله -ﷺ-:" **لعن الله السارق يسرق البيضة "(٨٥)** فلعن السارق ولم يلعن الشخص بعينه، وجاء في القرآن ﴿**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾**[هود:١٨]** وقد جاء عنه -ﷺ-**لعن الله آكل الربا وموكله "(٨٦)** وهذا لعن بالوصف لا بتعين الأشخاص، ولم يرد عنه لعن الأعيان إلا في مناسبات قليلة ونادرة قبل أن ينزل الله -ﷻ-﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾**[آل عمران:١٢٨]** فامتنع النبي عن لعن الأشخاص، بل كان -ﷺ- ينهى عن لعن البهائم ففي حديث أبي هريرة قال: **"كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ وَمَعَهُ رَجُلٌ إِذْ لَعَنَ نَاقَةً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ اللَّاعِنُ نَاقَتَهُ؟» فَقَالَ: هَا أَنَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَخِّرْهَا فَقَدْ أُجِبْتَ فِيهَا»(٨٧)**

---

(٨٤) رواه أحمد في المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه(٣٨٣٩ ٦/ ٣٩٠) والترمذي في السنن-كتاب أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ- بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّعْنَةِ ١٩٧٧ (٤/ ٣٥٠) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ" وصححه الألباني.

(٨٥) رواه البخاري –كتاب الحدود- بَابُ لَعْنِ السَّارِقِ إِذَا لَمْ يُسَمَّ ٦٧٨٣ (٨/ ١٥٩) ومسلم-كتاب الحدود- بَابُ حَدِّ السَّرِقَةِ وَنِصَابِهَا ١٦٨٧ (٣/ ١٣١٤).

(٨٦) صحيح البخاري-كتاب البيوع- بَابٌ: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} ٢٠٨٦ (٣/ ٦٠).

(٨٧) الدعاء للطبراني ٢٠٨٩ (ص: ٥٧٧).

وهذا فيه أدب من النبي-ﷺ- بالنهي حتى عن لعن الحيوان ويجب على الإنسان أن يطهر لسانه من اللعن حتى على البهائم والحيوانات.

قوله: " **إن شئت أقول بني فلان وبني فلان**" يعني أن أبا هريرة عنده علم منه بأسمائهم؛ وهذا مما في الوعاء الذي لم يبث منه شيئا، فقد قال: "**حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ , قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ**"(٨٨) فالأول هو ما حفظه من سنة النبي-ﷺ- التي يحتاج إليها المسلمون في أمور دينهم ودنياهم فبثها وبينها-رضي الله عنه- فكان أكثر المكثرين رواية لحديث النبي-ﷺ- وسنته، أما الآخر لم يبثه؛ لأنه لا يحتاج إليه الناس، بل قد يكون لهم فتنة بدليل قوله: "لو بثثته لقطع هذا الحلقوم" ومن هذا الوعاء أسماء بعض هؤلاء الغلمة والولاة الذين يأتون بعد النبي-ﷺ- والخلفاء الراشدين الذين يكون هلاك الأمة على أيديهم، إذ لا مصلحة في نشر أسمائهم بل يترتب على ذلك مفسدة وهي قتله -رضي الله عنه- فبث ما فيه مصلحة للمسلمين، وأحجم عن بث ما ليس لهم فيه مصلحة للمسلمين، فلا مصلحة في معرفة هؤلاء الغلمة وأسمائهم، ونحو ذلك من صور الفتن التي أخبر عنها النبي -ﷺ- أما ما يحتاجون إليه من سنة النبي-ﷺ- في أمور دينهم ودنياهم فقد أعلنها وبثها -رضي الله عنه-

قوله: "**فكنت أخرج مع جدي يعنى سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص إلى بني مروان حين ملكوا الشام فإذا رآهم غِلمانا أحداثًا قال لنا عسى هؤلاء أن يكونوا ممن أخبرنا خبرهم أبو هريرة عن النبي-ﷺ- قلنا أنت أعلم**" يعنى أنت أدرى هل هؤلاء الأحداث من بني مروان هم الذين عناهم النبي -ﷺ- في الحديث الذي حدثناه أبو هريرة في مسجد النبي -ﷺ- ؟ قلنا أنت أعلم .

(٨٨) صحيح البخاري- كتاب العلم- باب حفظ العلم ١٢٠(١/ ٣٥).

ولعنا نقف وقفات سريعة مع بعض الفوائد التي نستفيدها من هذا الحديث:

أول هذه الفوائد: أن ما ذكره أبو هريرة من أن هلاك أمة النبي -ﷺ- يكون على يد غلمة من قريش هو ثمرة من ثمرات الاستئثار بالولايات ولعل هذا هو السبب في إيراد الإمام البخاري هذا الباب بعد حديث الأثرة وباب "إنكم سترون بعدي أمورًا تنكرونها". **الثانية:** النهي عن لعن المعيّن فإن أبا هريرة لم يلعن من لعنه مروان وقد جاء النهي صريحًا في لعن المسلم فقال -ﷺ-:" **لعن المؤمن كقتله** "**(٨٩)** وقد تقدم الكلام بشيء من التفصيل في هذه المسألة.

الثالثة: جواز كتمان بعض العلم مما لا تدعوا الحاجة إليه، أو تترتب عليه مفسدة وهذا مأخوذٌ من فعل أبي هريرة -رضي الله عنه- فقد حفظ عن النبي -ﷺ- وعاءين بثَّ أحدَهما ونشره، وكتم الآخر الذي لا حاجة في نشره وتترتب على نشره مفاسد، وإلا فالأصل عدم كتمان العلم ، وقول النبي -ﷺ-: " **مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُلَجَّمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ** "**(٩٠)** يستثنى منه ما لا تدعوا الحاجة إليه أو ما تترتب عليه المفسدة، ومن تطبيقات الصحابة لذلك ما جاء في بعض الروايات عن أنس رضي الله عنه قال: "حدثت الحجاج بحديث العرنيين قال : فلما كانت الجمعة قام يخطب فقال : "تزعمون أني شديد العقوبة

---

(٨٩) رواه البخاري- كتاب الأدب-بَابُ مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ ٦١٠٥ (٨/ ٢٦) ومسلم- كتاب الإيمان- بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ١١٠ (١/ ١٠٤).

(٩٠) أخرجه أحمد في المسند بهذا اللفظ (١٦/ ٣٥١) وابن ماجه في سننه بلفظ"مَنْ كَتَمَ عِلْمًا مِمَّا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ.." بَابُ مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ ٢٦٥ (١/ ٩٧) والحاكم في المستدرك (١/ ١٨٢) وقال الذهبي: "على شرطهما ولا علة له".

وهذا أنس حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قطع أيدي رجال وأرجلهم وسمل أعينهم" قال أنس :"فوددت أني مت قبل أن أحدثه". (٩١)

فالمسلم يجب أن يكون حكيمًا لا يحدث بحديث لا تدركه عقول السامعين أو قد يترتب عليه فتنة، ولا ينبغي للمسلم أن يحدث بكل ما يسمع.

باب قول النبي -ﷺ-: "ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب"

هذا الباب من كتاب الفتن فيه إخبارٌ صريحٌ من النبي -ﷺ- بما سيقع في أمته من الفتن والشرور، وهذا الإخبار منه -عليه الصلاة والسلام- يعني التأكيد والتحذير من اقتراب أسباب الفتن ظاهرها وباطنها، والحرص على طلب النجاة منها بقدر ما يستطيع المرء، والتعامل معها إن ابتلي الإنسان بشيءٍ منها بما وردت به النصوص الشرعية، وهذه هي مناسبة هذا الباب لكتاب الفتن أعاذنا الله تعالى وإياكم ، وهذه الترجمة جزء من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها الذي ساقه المصنف بعد هذه الترجمة فقد ذكر المصنف -رحمه الله تعالى- تحت هذه الترجمة حديثين، الأول: عن زينب بنت جحش -رضي الله عنها-والثاني: عن أسامة بن زيدٍ -رضي الله تعالى عنهما- فقال رحمه الله:

١- **حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ الزُّهْرِيَّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، أَنَّهَا قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً قِيلَ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»**

(٩١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ١٩٣)

٢- **حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، ح وحَدَّثَنِي مَحْمُودٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَإِنِّي لَأَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ القَطْرِ»**

الحديث الأول: حديث زينب بنت جحش -رضي الله تعالى عنها- .

هذا الحديث، لأنه فيه نكتة ولطيفة إسنادية ففيه ثلاث صحابيات يروي بعضهن عن بعض، وهنّ زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش —رضي الله تعالى عنهن جميعًا- وبعض روايات هذا الحديث رويت عن أربع صحابيات، اثنتان من ربائب النبي -ﷺ- اللائي عشن في كنفه وتحته -ﷺ-لأن أمهاتهن كنا من زوجات النبي -ﷺ-، فجاء الحديث عن الأربع وهن: زينب بنت أم سلمة، وأم سلمة هي أم المؤمنين وزوج النبي -ﷺ- وزينب بنتها، فهذه الأولى، والثانية: حبيبة بنت أم حبيبة وهذه لم ترد هنا في هذا الحديث وإنما وردت في بعض الأسانيد لهذا الحديث، والثالثة: أم حبيبة زوج النبي-ﷺ-، والرابعة: زينب بين جحشٍ زوج النبي -ﷺ-، فاثنتان من ربائب النبي -ﷺ-، وهن زينب بنت أم سلمة وحبيبة بنت أم حبيبة، وهنّ صغيرات السن وقد تربين في بيوت النبي -ﷺ- وفي حجره—رضي الله تعالى عنهن وأرضاهن-.

وقد ألف بعض العلماء جزءًا في الأحاديث المسلسلة عن أربعة من الصحابة، وذكروا من ذلك هذا الحديث ومن هذه المؤلفات ما ألفه الحافظ عبد الغني الألفي، فهذا الحديث مسلسلٌ بأربعٍ من الصحابيات —رضوان الله تعالى عليهن -.

ومن نكت هذا الحديث أيضا أنه هنا رُوه إسناده عن سبعة فهو سباعي الإسناد هنا، ورواه البخاري -رحمه الله تعالى- في غير هذا الباب عن تسعة فهو تساعي الإسناد وهذا نادرٌ في صحيح البخاري وهو أطول إسنادٍ عند الإمام البخاري —رحمه الله تعالى- .

قوله: "**قالت: استيقظ النبي -ﷺ- من النوم محمرًا وجهه**"جاء في بعض الروايات لهذا الحديث "دخل عليها -ﷺ- فزعًا" ولعل دخوله عليها -ﷺ- بعد استيقاظه فجعًا -عليه الصلاة والسلام-، وقولها: "**محمرًا وجهه**" هذا يدل على شدة الفزع الذي أصاب النبي -ﷺ- مما آتاه من الوحي والخبر من وقوع الفتن في أمته -ﷺ-، وهذا دليلٌ على خوف النبي -ﷺ- على أمته وحرصه -ﷺ- على سلامتها من الفتن والشرور، كما أخبر به الله تعالى في قوله: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ **[التوبة:١٢٨]**.

قوله: "يقول: "**لا إله إلا الله**" وهذه هي كلمة التوحيد وينبغي أن تقال في كل حالٍ وعلى كل حالٍ وفي كل ظرفٍ وفي كل مناسبة، وروي عن النبي -ﷺ- أنه قال: "**أفضل ما قلت أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله**"(**٩٢**) فأفضل الكلمات وأفضل ما قاله النبي -ﷺ- من الذكر هو كلمة لا إله إلا الله، والنبي -ﷺ- قالها هنا في حال الفزع، وعليه فإن من المشروع أن الإنسان إذا أصابه أمر مفزع ومخوِّف أن يذكر الله -ﷻ-، وأفضل الذكر هو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله .

قوله: "ويقول -عليه الصلاة والسلام-: "**ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب**"

ويلٌ للعرب: هذه كلمةٌ تقال عند حصول الهلكة أو عند توقعها، وويلٌ: كلمة عذابٍ أو وادٍ في جهنم كما هو معروف عند المفسرين والعياذ بالله من جهنم، وخصص العرب هنا لعدم دخول غيرهم في الإسلام في ذلك الوقت، فهذا الكلام كان في أول الإسلام والعرب أول من دخل عليهم الإسلام، وأول من دخل في الإسلام ، أما من دخل في الإسلام من غير العرب فكانوا قلة، والكثرة كانوا عربا كما هو معروف لأن النبي -ﷺ- كان عربيًا والقرآن عربيٌ ونزل عليه الوحي في بلاد العرب، فكان الخطاب في الخوف على العرب.

(٩٢) رواه -أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٥٨٥(٥/ ٥٧٢) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ" وحسنه الألباني.

قوله: "من شرٍ قد اقترب" هذا إجمال وبعده فصل النبي -ﷺ- هذا الشر الذي قد اقترب بقوله: **"فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج** مثل هذه " وأشار -عليه الصلاة والسلام- إلى صغر ما تم فتحه من ردم يأجوج ومأجوج وهذا مؤذنٌ بقرب قيام الساعة، فهذا الحديث من الأحاديث التي أشارت إلى قرب قيام الساعة، والنبي -ﷺ- كان يحذر أمته ويبين لهم قرب هذه الساعة ليستعدوا لها، وجاءت في ذلك النصوص صريحة في كتاب الله -ﷻ- وسنة نبيه-ﷺ- فقال-ﷻ-: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ **[القمر: ١]**، وقال-ﷺ-: **"بُعثت والساعة كهاتين"(٩٣)** وأشار -ﷺ- بإصبعيه خرج بين إصبعيه ليدل ذلك على قرب مبعثه -ﷺ- من الساعة بل إن بعثته -ﷺ- هي من أسباب الساعة وأمارة من أماراتها.

قوله -عليه الصلاة والسلام-: **"ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج"**، ردم يأجوج ومأجوج المقصود به هنا هو السّد الذي بناه ذوالقرنين وأخبرنا الله تعالى في قوله -ﷻ-: ﴿**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا*قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا*زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا*فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾ [الكهف: ٩٤-٩٧]** وقال -سبحانه وتعالى- في سورة الأنبياء: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ*واقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِين** ﴾ **[الأنبياء: ٩٦-٩٧]**.

وبيّن في هذا الحديث مقدار ما فتح من هذا الردم فقال: **"مثل هذه"** يقول الراوي: **"وعقد سفيان تسعين أو مئة"** من المعلوم أن العرب أمةٌ لا تقرأ ولا تكتب، وإنما كانوا يتعاملون بالإشارات ولهم طريقةٌ متفقٌ عليها عندهم في الحسابات فعندهم في طريق كتاب "العشرات"

(٩٣) رواه البخاري- كتاب الرقاق-بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»٦٥٠٤(٨/ ١٠٦) ومسلم-كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ- باب قرب الساعة ٢٩٥١ (٤/ ٢٢٦٨).

يبدؤون باليد اليمنى، والتسعون عندهم هو: ثني السبابة إلى أصلها أو إلى باطن الإبهام فتلك إشارتهم إلى التسعين، أما المئات فتكون بنفس الإشارات في اليد اليسرى، وهذا معنى قوله هنا: قال: "**وعقد سفيان تسعين أو مئة**"، أي أنها بهذه المسافة، وهذه إشارة كانت معروفة عند العرب في أول صدر الإسلام، وقد جاء التصريح في بيانها في الرواية الأخرى في آخر كتاب الفتن الذي هو بين أيدينا، حينما قال في الحديث قال: "**وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها**"، وهذا هو المقدار الذي تم فتحه من سد يأجوج ومأجوج، وهذا دليلٌ على أنه مادام قد بُدأ في الفتح من ذلك الزمن فإن انهيار السد وظهور يأجوج ومأجوج قد اقترب، ومعنى ذلك أن قيام الساعة قد اقترب.

ويأجوج ومأجوج جاءت روايات كثيرة في وقتهم وعددهم وأصلهم وجنسهم ، لكن أغلبها من الإسرائيليات التي لا يعتمد عليها، والواجب علينا أن نقتصر على ما صح فيه الخبر وجاء عن النبي -ﷺ- في وقتهم، وإلا فإن كتب شروح الحديث وكتب التفسير مملوءة بكثيرٍ من هذه الروايات الإسرائيلية التي لا زمام .

ويأجوج ومأجوج هكذا بالهمز في قراءة عاصم التي نقرأ بها ، وقراءة الجمهور ياجوج وماجوج من غير همز ، واختلف في أصل هذه المادة وهل هي عربية أو ليست عربية؟ فقيل هي من تأجج النار، أو من الأجاج وهي الملوحة، وغير ذلك من الصفات التي لا تعنينا كثيرًا في هذا المقام، لكن الذي صح عن النبي -ﷺ- من خبر هؤلاء الخلق ما جاء عند مسلم من حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه-(٩٤) وهو حديثٌ طويل ذكر النبي -ﷺ- فيه بعض أشراط الساعة كفتنة الدجال وقتله على يد عيسى -عليه السلام-، وفيه: "**ثم يأتيه قومٌ قد عصمهم الله تعالى من الدجال يعني من المؤمنين، فيمسح وجوههم ويُحدثهم بدرجاتهم في الجنة**" لأنهم من المؤمنين الذين أنجاهم الله من فتنة الدجال، يقول:" **فبينما هم كذلك إذا أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحدٍ بقتالهم**" يعني لا أحد

(٩٤) صحيح مسلم-كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ- بَابُ ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ ٢٩٣٧(٤/ ٢٢٥٤).

يمكن أن يستطيع أن يقاتلهم، **قال: "فحرز عبادي إلى الطور"**، يعني ضمهم واجعله لهم حرزا للسلامة من هؤلاء العباد الذين أظهرهم وأخرجهم الله –سبحانه وتعالى– بعد هدم الردم الذي منع من وصولهم إلى الخلق من المؤمنين، قال: "**ويبعث الله يأجوج ومأجوج"**، بعد أن ينهدم الردم الذي قال الله –ﷻ– عنه: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**﴾ **[الأنبياء:٩٦]**، وقال الله –ﷻ– أيضًا في سورة الكهف قال: ﴿**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ **[الكهف:٩٨]**، فتلك اللحظة يكون قد تم فتح السور بأكمله ثم يخرجون، قال: "**فيبعث الله يأجوج ومأجوج فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية"**،وهي بحيرة مشهورة معروفة في الشام " **فيشربون ما فيها"** كل ما في البحيرة يشربونه، "**ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان في هذه مرةً ماء"** وقد جاء في وصف كثرتهم أن الواحد منهم تتكاثر ذريته حتى يصلون إلى الألف، وهذه من الروايات التي لا يعتمد عليها، لكن هذا الحديث يدل على كثرتهم وأنهم يشربون البحار.

قال: "**ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثوب في أحدهم خيرا من مئة دينار"** أي يحصرون في هذا الجبل الذي انحازوا إليه في جبل الطور فيحصرهم هؤلاء ويبقون محصورين في هذا الجبل ليس عندهم زاد ولا عندهم شيء حتى إن رأس الثوب عندهم أغلى قيمة وخيرًا من مئة دينار من شدة الكرب الذي هم فيه والحصار الذي ضرب عليهم من هذا الخلق ، قال: "**فيرغب عيسى نبي الله وأصحابه إلى الله فيرسل عليهم النغف في رقابهم**" يرغب المسيح –عليه السلام– عيسى والمؤمنين معه إلى الله –عز وجل– ويلجؤون بالدعاء في أن ينجيهم الله من هذا الخلق الذي انبعث عليهم والذي حاصرهم وضيق عليهم فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم والواحدة نغفة، قال "**فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة"** أي يهلكهم الله –ﷻ– بهذا النغف وهذا الداء الذي يبعثه –ﷻ– عليهم، قال: "**ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ**

شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ" وهذا دليل على كثرتهم ، قال: **""فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ"** ومعنى الزلفة المرآة الصافية كناية عن نقائها واستوائها، قال: **ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ "** نسأل الله العافية والسلامة، وهذا الحديث أصح حديث جاء في وصف هؤلاء القوم الذين ذكرهم الله –سبحانه وتعالى– في كتابه العزيز فهم في آخر الزمن وهم يكونون بعد المهدي وبعد خروج الدجال وبعد فتنة الدجال وبعد مقتل الدجال وبعد نزول المسيح –عليه السلام– ولم يرد فيهم من الصفات إلا ما ذكره الله –عز وجل– في كتابه، وما ورد في هذا الحديث وهي ما نحتاج إليها، أما ما خفي عنا فإنه لو ثمة فائدة في معرفته لبيّنه الله –سبحانه وتعالى– لنا، أما وقد استأثر الله بعلمه فمن التكلّف أن يبحث الإنسان عن أمرٍ لا دخل له به، وما ورد في كتب التفاسير وفي شروح الأحاديث وغيرها من الإسرائيليات أو غيرها، فلسنا في حاجةٍ إليه.

أما ما يتعلق بذي القرنين وسدّه فإن العلماء اختلفوا فيه أيضا وترددوا في نبوته، وجاء هذا التردد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– حيث قال: **"مَا أَدْرِي ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنَبِيًّا كَانَ أَمْ لَا؟"(٩٥)** وإذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– قد توقف في هذا، فنحن من باب أولى أن نتوقف.

---

(٩٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٩٢) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْلَمُ لَهُ عِلَّةً وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

أما السد فيكفينا ما ذكره الله -ﷻ- عنه حيث ذكر صفته وبانيه وسبب بنائه، فذكر أنه بُني من أجل سدّ فساد هؤلاء القوم المفسدون،وكفَّ الله أذاهم بهذا الردم وجعل له أجلًا وهو آخر عمر الدنيا وآخر الزمان وقد بُدئ هدمه في عهد النبي -ﷺ- وذلك هو ما أفزع النبي -ﷺ- إذ خشي -عليه الصلاة والسلام- أن يفتح هذا الردم على المسلمين، ولاشك أن فتحه فيه شرٌ وفتنةٌ وبلاءٌ على المسلمين .

هذا الردم روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقون قال لهم رؤسائهم وكبراؤهم الذي عليهم: ارجعوا وستخرقونه غدًا، فيعيده الله أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم، قال الذي عليهم: ارجعوا فستفلقونه غدًا إن شاء الله، واستثنى. قَالَ: فَيَرْجِعُونَ فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَخْرِقُونَهُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ"(٩٦) ففي المرات السابقة لا يستثنون ولا يقولون إن شاء الله، ولما أراد الله هدمه ألهم القائم عليهم أن يقول: إن شاء الله، وهذا الحديث من أبرز الأحاديث التي جاءت في وصف هؤلاء القوم وهذا الردم الذي يُعدّ آية من آيات الله -ﷻ-.

قوله : "قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال -ﷺ-: **"نعم، إذا كثر الخبث"** ورد في بعض الروايات أن السائلة هي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها وهذا الشطر من الحديث نلاحظ الربط والعلاقة بينه وبين أول كتاب الفتن وقول الإمام البخاري -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في قول الله -ﷻ-: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾**[الأنفال:٢٥]**، فهنا تقول زينب -رضي الله تعالى عنها-: أنهلك وفينا الصالحون يا رسول الله؟! يعني أيمكن أن يصيبنا هذا الكرب وهذا الهلاك وفينا الصالحون الطائعون

(٩٦) رواه الترمذي في سننه ٣١٥٣ (٥/ ١٦٥) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مِثْلَ هَذَا" وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٤) وقال:"هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ" ووافقه الذهبي.

الساجدون المتعبدون لله -ﷻ-؟! فقال النبي -ﷺ- : **"نعم"**، يمكن أن تصيبكم الفتن، ويمكن أن يصيبكم الهلاك والزلازل والمحن، إذا غلب الخبث على الصلاح، فيهلك الصالحون مع الطالحون، ثم يبعث الله تعالى الناس على نياتهم، فالصالح على نيته، والطالح يؤاخذه الله -ﷻ- بما فعل، وهذا الشطر من الحديث هو معنى الآية التي مرت معنا في قول الله -تعالى-: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾**[الأنفال:٢٥]**.

والصلاح معلومٌ أنه لا يكتمل إلا بالإصلاح فمجرد صلاح النفس دون الاشتغال بإصلاح الغير يُعدّ صلاحا ناقصا، وكمال الصلاح هو أن يكون مع الصلاح إصلاح، وبذلك يتحقق الوعد الرباني في قوله -تعالى-: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ **[هود:١١٧]**، ولم يقل سبحانه: "وأهلها صالحون" إنما قال: "وأهلها مصلحون" ونحو هذا المعنى قوله -ﷻ-: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾**[الأعراف:١٦٥]** فبيّنت هذه الآية أن الله يجزي المفلحين الذين ينهون عن السوء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويهلك الله -ﷻ- الفسقة، وسكت -ﷻ- عن الصالحين،وهذا دليلٌ على أن الواجب على المسلم أن يكون صالحًا في نفسه مصلحًا لغيره وخاصة من تحت يده، ومن استرعاهم الله إياه، من رعيته، وذريته، وأقاربه وجيرانه، ويكون ساعيًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر ما يستطيع،قال صلى الله عليه وسلم:"**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**"**(٩٧)** فأضعف درجات الإيمان أن يتمعّر قلب الإنسان لما يرى من المنكر ولا يستطيع أن يغيره لا بيده ولا بلسانه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أحد شعائر الإسلام الكبيرة وأركانه أيضًا، وهذه النصوص واضحةٌ في هذا المعنى الذي بين أيدينا.

---

(٩٧) رواه مسلم- كتاب الإيمان-بَابُ بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ٤٩(١/ ٦٩).

قوله -ﷺ-: "**نعم، إذا كثر الخبث**"الخبثُ هنا يشمل جميع أنواع الخبث، كالخبث السلوكي، والأخلاقي، والخبث الفكري، ويشمل الخبث العقدي من البدع وغيرها، فهو يشمل جميع أنواع الخبائث المبعدة عن نهج الكتاب والسنة وإذا وجد الخبث وبعدت الناس عن إنكاره ومقاومته لكثرته فإنهم يهلكون جميعا صالحهم وطالحهم .

من فوائد الحديث:

١- خوف النبي -ﷺ- على أمته وتحذيره إياهم من أسباب الفتن والشرور.

من فوائد الحديث أيضًا قرب وقت قيام الساعة، كما دلّ على ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الصريحة، قال تعالى:﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾**[الأحزاب:٦٣]**، وقال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**﴾**[القمر:١]** وقال النبي -ﷺ- "**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**"، وهذا دليلٌ على قرب وقت قيام الساعة، والنبي -ﷺ- يخبرنا بأن سد يأجوج ومأجوج الذي لا يكون انكساره وانفتاحه إلا في آخر الزمان قد بُدأ فيه وأصبحت فيه كُلمة بهذا القدر، مما يدل على قرب قيام الساعة، وهذا يقتضي الاستعداد لها وقبل ذلك الاستعداد لما هو أقرب من ذلك كله وهو الموت فلكل واحدٍ ساعة فقد كَانَ رِجَالٌ مِنَ الأَعْرَابِ جُفَاةً، يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسْأَلُونَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لاَ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»، قَالَ هِشَامٌ: يَعْنِي مَوْتَهُمْ "**(٩٨)** فساعتنا قريبة إما الساعة العظمى ونسأل الله أن لا ندرك ذلك الزمان لما فيه من تلك الأهوال والمصائب أو الساعة القريبة وهي نهاية أثرنا والله أعلم ماذا بقي من أعمارنا لإدراك هذه الساعة وكلٌ منا له ساعةٌ معلومة، والغرض من هذا التهويل من النبي صلى الله عليه وسلم هو تنبيه الغافلين على أن الأمر جلل والخطب عظيم والساعة أدهى وأمر وهي قريبة، وإذا كان قد فُتح من ذلك الردم الذي حال بيننا وبين تلك المخلوقات جزءٌ في عهد النبي -ﷺ- فكيف به الآن؟! .

(٩٨) رواه البخاري-كتاب الرقاق- بَابُ سَكَرَاتِ المَوْتِ ٦٥١١ (٨/ ١٠٧).

٢- ومن فوائد هذا الحديث أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة التي تكون في آخر الزمان كما في حديث مسلم وتكون بعد نزول المسيح -عليه السلام- والنص الذي مر معنا ظاهرٌ جلي في هذه المسألة.

٣- من فوائد الحديث: شؤم المعاصي، وأنها سببٌ الهلاك، فعندما قيل: "أنهلك وفينا الصالحون؟!" قال: "نعم، إذا كثر الخبث"، وهذا ينبهنا إلى أهمية إحياء شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنها العاصم بإذن الله -عز وجل- من الهلاك، أما اقتصار الإنسان على إصلاح نفسه فقط فإن هذا الصلاح ناقصٌ عند تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بقدر ما يستطيع ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

٤- هذا الحديث فيه تفسيرٌ للآية التي مرّ الحديث عنها في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾ **[الأنفال:٢٥]**، فالشرّ يعم والخير يخصّ، ولكن مع ذلك لا يظلم ربك أحدًا، فإنهم وإن عمهم هذا الشر إلا أنهم يحاسبون على نياتهم، فالصالحون لهم النجاة جعلنا الله وإياكم منهم، والهالكون سبيلهم إلى النار وبئس القرار واليعاذ بالله.

الحديث الثاني: عن أسامة بن زيد –رضي الله تعالى عنه وعن أبيه–: قال: : أشرف رسول الله –ﷺ– على أطمٍ من آطام المدينة، فقال –ﷺ–: "هل ترون ما أرى؟ قالوا:لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر".

هذا الحديث من رواية عروة عن أسامة بن زيد رضي الله عنها حبّ رسول صلى الله عليه وسلم وابن حبّه، مناسبة الحديث للباب ظاهرة وهي أن هذه الصورة من صور الشرّ الذي قد اقترب وخافه النبي -ﷺ- وقال: **"ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب"**، فهذا الشر تجمعه الفتنة وأعظم الفتنة هي قيام الساعة واليعاذ بالله، وخروج يأجوج ومأجوج، لكن هناك أيضًا فتن أخرى غير الكبرى، ولذلك ذكر الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- هذا الحديث في كتابه، وهذا من فقه الإمام البخاري –رحمه الله تعالى-. فهذا الحديث هو صورة من صور الشر الذي يخافه الرسول -ﷺ- على أمته، من الفتن التي ستقع في هذه الأمة الإسلامية مبكرًا، وقد

كانت كما أخبر النبي -ﷺ- وذلك بعد مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم مقتل الخليفة الراشد عثمان —رضي الله تعالى عنه وأرضاه- قوله: -ﷺ-: **"أترون ما أرى؟"** الرؤية هنا تحتمل أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية، ولا مانع أن تكون بصرية؛ لأن النبي -ﷺ- يرى ما لا يراه الناس، يُكشف له -ﷺ- ويرى بعينه ببصره -ﷺ- ما لا يراه الناس، وهذه من خصائصه -ﷺ- ويدل على ذلك ما ورد في حديث صلاة الاستسقاء حينما تقدم -ﷺ- وتأخر فرأى النبي -ﷺ- النار وهو في المحراب، ومن أجل التأكيد على جلب انتباههم سأل الذين معه: "هل ترون ما أرى؟" وطرح مثل هذا السؤال لجمع الأفكار وجلب الانتباه لما يريد أن يقوله —عليه الصلاة والسلام- وهو أسلوبٌ تربويٌ لاستجماع الأفكار لما سيجاب به على هذا السؤال، فقالوا: "لا"، لأنهم لا يرون ما يرى النبي -ﷺ-، فقال: **"إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم"**، والفتن من الأمور المعنوية، لكن النبي -ﷺ- يرى ما لا يراه الناس بما في ذلك الأمور المعنوية ، وجاء في رواية أخرى في الصحيحين: **"إني لأرى مواقع الفتن"** يعني مواضع سقوطها والخلال والنواحي التي تكون فيها، وفي قوله: **"خلال بيوتكم"**، يعني في نواحي المدينة بين هذه البيوت التي يراها النبي -ﷺ- ببصره واختصت بها المدينة؛ لأن الفتن ابتدأت من المدينة بمقتل الخليفتين الراشدين -رضي الله عنهما وأرضاهما- ثم انتقلت وانتشرت وامتدت، وقوله: **"إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم"** لا يتعارض مع قول النبي -ﷺ- -عليه الصلاة والسلام-: **" " الفِتْنَةُ هَا هُنَا الفِتْنَةُ هَا هُنَا، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ، – أَوْ قَالَ: قَرْنُ الشَّمْسِ – "(٩٩)** والمشرق بالنسبة للمدينة هي أرض العراق وفارس، فهي بلاد الفتن والشرور تظهر منها في أول الإسلام وفي آخره، كفانا الله شرها ورد كيدهم في نحورهم.

وقد يجمع بينهما بأن ابتداءها يكون في المدينة كما حصل بمقتل الخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما، أما انتشارها واتساعها يكون في المشرق والواقع المشاهد والتاريخ الماضي يشهدان لهذا الجمع فلا تعارض بين الحديثين البتة.

---

(٩٩) رواه البخاري-كتاب الفتن- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الفِتْنَةُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ» ٧٠٩٢ (٩/ ٥٣).

وقد يقال أن من أسباب مقتل عثمان هو سوء تصرف بعض الولاة الذين ولّاهم عثمان – رضي الله تعالى عنه– عن العراق والمشرق فكانوا هم سبب الفتنة في مقتل عثمان –رضي الله تعالى عنه– وهذا أحد الأجوبة والعلم عند الله تعالى.

في قوله –ﷺ– هنا: "**كوقع القطر**" وجاء في رواية: "**المطر**" القطر هنا المراد به المطر وذلك لإفادة التعميم والانتشار والكثرة، يقول النووي –رحمه الله تعالى–: "والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي أنها كثيرة وتعم الناس، لا يختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كواقعة الجمل، وحطين والحرة ومقتل عثمان ومقتل الحسين –رضي الله تعالى عنهما– وغير ذلك وفيه معجزة ظاهرة للنبي –ﷺ–".(**١٠٠**)

فهذا الحديث بما فيه من الإخبار عن أمرٍ غيبي يُعدّ من معجزات النبي –ﷺ– ومن آياته ودلالات نبوته —عليه الصلاة والسلام– والمقصود بهذا الخبر ليس لمجرد الخبر وإنما المقصود من ذلك هو التحذير من الفتن ومقاومتها، وألّا يكون الإنسان سببًا لوقوعها، بل يطلب أسباب النجاة منها بقدر المستطاع، فالنبي –ﷺ– لما ذكر الدجال قال: " "**من سمع منكم بخروج الدجال فلينأ عنه ما استطاع**"(**١٠١**)، ويؤخذ من هذا الحرص على البعد عن مواطن الفتن والدجال، لكن الناس اليوم —وللأسف– أخشى لو ظهر الدجال بينهم، أن يزلّ بهم حبّ الاستطلاع والسبق إلى نقل الأخبار فيقولون: "نذهب لنرى من هو الدجال"، وذلك خطر عظيم، والواجب على الإنسان أن يكون بعيدًا عن مواطن الفتن، وينأى بنفسه عنها، فإن القلوب ضعيفة، وقد تُشرب تلك الشبهة والفتنة فيهلك الإنسان، ومن ابتلي برؤية الدجال وغيره من الفتن فليصبر وليتعامل مع ذلك بما أوجبه الله —سبحانه وتعالى– وبينه لنا النبي –ﷺ– أعاذنا الله وإياكم من هذه الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وفي قوله –عليه الصلاة والسلام–: "**فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر**"، إشارة –ﷺ– إلى أن تلك الفتنة ظاهرة وعامة ، وليست خاصة، وقد تقدم انقسام الفتن إلى

(١٠٠) شرح النووي على مسلم (١٨/ ٧).

(١٠١) رواه أبو داود– كتاب الملاحم– بَابُ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ٤٣١٩(٤/ ١١٦) وصححه الألباني.

قسمين خاصة وعامة،والخاصة هي ما يصيب الإنسان في ماله وولده وأهله وهذه كما قال النبي -ﷺ- فيها تكفرها الصلاة والزكاة والصيام والصدقة لكن المصيبة هي الفتنة العامة التي قال الله -سبحانه وتعالى- فيها: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾ **[الأنفال:٢٥]**، فهي تعمّ واليعاذ بالله ومن أعظمها ما أشار إليه هذا الحديث من فتنة الاقتتالبين المسلمين فهي من أعظم وأخطر المصائب والفتن التي أصابت المسلمين، وهي التي سأل النبي -ﷺ- ربه أن لا تقع في هذه الأمة فمنعه الله -ﷻ- إياها لحكمةٍ يعلمها سبحانه، ومن ذلك الواقع الذي نعيشه اليوم في اقتال المسلمين فيما بينهم واستغلال الأعداء لجهل المسلمين وزرع بذور الفتنة في ديارهم وتجنيد أبنائهم الجهلة الذين ابتعدوا عن أمتهم وعن علمائهم وعن دينهم فغرسوا فيهم مثل هذه الأفكار حتى جعلوهم لقمةً سائغة لأعدائهم يوجهونهم حيث يريدون مما يخدم مصالح أعداء الله ومصالح أمتهم ودينهم نسأل الله أن يرد إليه المسلمين.

من فوائد الحديث:

١- تحذير النبي -ﷺ- أصحابه وأمته من الفتن وأمره بالبعد عنها ومواطنها وإخباره -ﷺ- بأنها تقع في نواحي المدينة وقد حصل ما أخبر به النبي -ﷺ-، فكان مقتل عثمان في المدينة بل في مسجد النبي -ﷺ-، ومقتل عمر -رضي الله تعالى عنه-.

٢- أن هذا الإخبار ليس لمجرد العلم فقط وإنما من أجل التحذير من الفتن وعدم المشاركة فيها، والصبر عند ظهورها حتى تنجلي، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالدماء أو كانت بين المسلمين فقد جاء رجل إلى ابن عمر فقال له: "اكتب لي العلم كله" فقال له عمر -رضي الله تعالى عنهما-: "إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله -ﷻ- وأنت خفيف الظهر من دماء المسلمين خميص

البطن من أموالهم عفيف اللسان من أعراضهم".(**١٠٢**) فهذه نصيحة من كلمات جامعة مانعة، وهي ثمرة العلم خاصةً فيما يتعلق بالواقع ومعاملة الإنسان للآخرين، وما يجب أن يكون عليه الإنسان في زماننا هذا ، وأول هذه أن يكون المرء خفيف الظهر من دماء المسلمين" فلا يقع في دماء المسلمين أو في غيرهم ممن يحرم دمهم فمن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعًا، ولم يأت وعيد لذنبٍ من الكبائر أشد من قتل المؤمن، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾**[النساء:٩٣]**.

الثانية: "خميص البطن من أموالهم" بأن يستعف الإنسان عن أكل الحرام وأكل أموال الناس بالباطل.

والثالثة: قال: "عفيف اللسان من أعراضهم" وقد نجد إنسانًا يتورع عن دماء المسلمين، ويتورع ويتعفف عن أكل أموالهم، ولكنه لا يتعفف ويتورع عن أعراضهم وهذه من الموبقات الذي جعلها ابن عمر –رضي الله عنهما– قسيمة للدماء وأكل الأموال، وهذا الأمر كما ورد عن الإمام مالك رحمه الله هي ثمرة العلم الذي يزرع الخشية في قلوب الناس ويقوي الإيمان في قلوبهم فيردعه عن تجاوز حدود الله تعالى، والعلاج الوحيد للسلامة من الوقوع في هذه الفتن والموبقات هو العلم المورث للخشية وزيادة الإيمان واليقين، أما العلم الذي لا يثمر خشية الله –ﷻ– فإنه حجة على العبد واليعاذ بالله، ولهذا يقول الإمام مالك –رحمه الله تعالى–: يقول: "إن أقوامًا ابتغوا العبادة وتركوا العلم حتى خَرجُوا بِأَسْيَافِهِمْ على أمة مُحَمَّد وَلَو طلبُوا الْعلم لم يدلهم على مَا فعلوا"(**١٠٣**)، يعني صار لديهم حماس للعبادة والتعبد، وتركوا العلم

(١٠٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/ ٢٥٦).

(١٠٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٨٣).

لأن العلم يحتاج إلى مثابرة ويحتاج إلى طول نفس من أجل أن يصل الإنسان إلى ثمرته، فالعبادة من غير علم نتيجتها الضلال والخروج على الأمة بالسيوف.

كما أن المانع والحاجز عن الولوغ في دماء المسلمين هو العلم، فهو الذي يرجع الإنسان إليه عند حلول المصائب والفتن سواء كانت في الدماء أو في الأموال أو في الأعراض، فالعلم الراسخ هو الذي يؤدي إلى أربعة أمور غاية في الأهمية:

أولها: التقوى بين العبد وبين ربه.

الثاني: تواضع بينه وبين الناس فكل ما ازداد الإنسان علمًا ازداد تواضعًا، ولا يمكن أن تجد عالما ربانيًا متكبرًا على الناس أبدًا، ولذلك تلاحظون أن علماءنا بارك الله فيهم وحفظهم ونفع بعلومهم، هم أكثر الناس تواضعًا، أما الذين يتكبرون فهؤلاء حرموا بركة العلم، قال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾

[الأعراف:١٤٦].

الثالث: الزهدُ في الدنيا؛ فإن المتطلع للدنيا الذي يؤثرها على الآخرة محروم من ثمرة العلم، فكلما تمكن العلم في القلب زهد الإنسان في الدنيا.

الرابع: محاسبة النفس ، فالعالم هو الذي يهتم بعيوبه وأخطاء نفسه وتقصيرها، أما الذي يغفل عن عيوب نفسه ويمد عينيه إلى عيوب الآخرين فهو من المحرومين، فمن اشتغل بعيوبه أشغلته عن عيوب الناس، والإنسان إذا فتّش وجد وكلنا خطاء وخير الخطائين التوابون، أسأل الله – ﷻ– أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

٣- في قوله صلى الله عليه وسلم: "**أترون ما أرى، قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر**"، هذا فيه خاصية من خصائص النبي – ودليل

من دلائل نبوته -عليه الصلاة والسلام- وقد وقع كما أخبر – مع أن هذا من أمور الغيب.

باب "ظهور الفتن"

ذكر المصنف-رحمه الله تعالى- في هذا الباب ثلاثة أحاديث:

أولها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وثانيها: أربع روايات من حديث عبد الله ابن مسعود وأبي موسي الأشعري –رضي الله عنهما-.

والثالث: هو حديث ابن مسعود –ﷺ-.

وهي أحاديث دالة على حصول الفتن وأسبابها، وزمن ظهورها، وما يتعلق بها من علامات الساعة، وفي هذا يقول المصنف-رحمه الله تعالى-:

الحديث الأول: حَدَّثَنَا عَيَّاشُ بْنُ الوَلِيدِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الأَعْلَى، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّمَ هُوَ؟ قَالَ: «القَتْلُ القَتْلُ» وَقَالَ شُعَيْبٌ، وَيُونُسُ، وَاللَّيْثُ، وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الحديث ذكر فيه النبي –ﷺ– خمس خصال مؤذنة بزوال الدنيا، وتوضح قرب أيام الساعة كما في الروايات التالية في حديث أبي هريرة وأبي موسي الأشعري –ﷺ–، وهي خصال في غاية الخطورة، وهنا تكمن أهمية معرفتها، ومعرفة معانيها، ودلالتها، والتعامل معها حتى لا يقع الإنسان في شيء منها وهو يشعر أو لا يشعر، وهذه الخصال:

أولها: تقارب الزمن، وقد كثرت فيه أقوال أهل العلم، وتفسيراتهم وسنكتفي هنا بالإشارة أهمها، فمن معاني تقارب الزمان: قلة الدين حتى لا يكون في الناس من يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر،ففي الخبر:" لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساووا هلكوا"**(١٠٤)**، يَعْنِي لَا يَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا كَانَ فِيهِمْ أَهْلُ فَضْلٍ وَصَلَاحٍ وَخَوْفٍ مِنَ اللَّهِ -ﷻ- وقد يكون المقصود التفاضل في العلم خاصة، وذلك ؛لأن الناس لا يتساوون في العلم. لقوله تعالى: ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عليمٌ** ﴾ [يوسف:٧٦]، إنما يتساوون في الجهل.

ومن المعاني: أن يكون تقارب الزمان تقاربًا حسيًا، كما جاء في حديث أنس عن الإمام أحمد والترمذي قال **صلى الله عليه وسلم**:((**لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون الساعة كالشهر ويكون الشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة وتكون الساعة كاحتراق السعفة**)) **(١٠٥)**والسفعة: الخوصة التي إذا وضعت بها النار سرعان ما تنطفي، وتصبح رمادًا، وهذا الحديث فيه ضعف في إسناده، ولكن له شواهد أخرى تقوّيه، وقد فسّر الخطابي تقارب الزمان باستلذاذ العيش، قال ابن حجر: "يُرِيدُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَقَعُ عِنْدَ خُرُوجِ الْمَهْدِيِّ وَوُقُوعِ الْأَمَنَةِ فِي الْأَرْضِ وَغَلَبَةِ الْعَدْلِ فِيهَا فَيُسْتَلَذُّ الْعَيْشُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتُسْتَقْصَرُ مُدَّتُهُ وَمَا زَالَ

(١٠٤) أوره ابن حجر في فتح الباري وسكت عنه (١٣/ ١٦) وقال أبوحذيفة في أنيس الساري (تخريج أحاديث فتح الباري) (٩/ ٦٤٧٤)" لم أجده".

(١٠٥) مسند أحمد ١٠٩٤٣ (١٦/ ٥٥٠) سنن الترمذي – أبواب الزهد- بَابُ مَا جَاءَ فِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ وَقِصَرِ الأَمَلِ٢٣٣٢ (٤/ ٥٦٧).

النَّاسُ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ أَيَّامِ الرَّخَاءِ وَإِنْ طَالَتْ وَيَسْتَطِيلُونَ مُدَّةَ الْمَكْرُوهِ وَإِنْ قَصُرَتْ".(١٠٦) وهذا أمر ظاهر فالوقت طويل في الضراء، وأما في الرغد والعافية فإن الساعات تمضي ولا يشعر بها أحد، وهذا أمر ظاهر يجده الإنسان في نفسه .

ومن معاني تقارب الزمان ما ذهب إليه الحافظ بن الحجر -رحمه الله تعالى- حيث قال: "والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان، وذلك من علامات قرب الساعة"(١٠٧)، وهذا ما رجحه الإمام النووي أيضا حيث قال -رحمه الله تعالى-:" المراد بقصره عدم البركة فيه، وأن اليوم مثلاً يصير الانتفاع به بقدر الانتفاع بالساعة الواحدة"(١٠٨)، وهذا أظهر وأكثر فائدة، وأوفق لبقية الأحاديث، من حيث دلالاتها، ومعانيها.

ومن معاني تقارب الزمان في هذا الحديث قصر الأعمار في كل طبقة، ونحن نعلم أن أعمار بني آدم تتقاصر، كما بين الله -ﷻ- عن عمر نوح -عليه السلام- ﴿**أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ [العنكبوت:١٤]، في حين أن أعمار أمة محمد -ﷺ- من الستين إلى السبعين، وقليل من يتجاوزها .

ومن معاني تقارب الزمان ما حكي عن البيضاوي رحمه الله من أن المراد بتقارب الزمان، تقارب الدول إلى الانقضاء، والقرون إلى الانقراض، فيتقارب زمانهم، وتتداني أيامهم"، وهذا تؤيده القلاقل، والثورات، والفتن التي تحصل في الدول في هذا العصر.

---

(١٠٦) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٦).

(١٠٧) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٦).

(١٠٨) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٧).

ويحتمل أن يكون المراد بتقارب الزمان قصره، وعلى هذا فالقصر يحتمل أن يكون حسيًا أو معنويًا، أما الحسي فلم يظهر بعد، يعني: لا يزال اليوم أربعة وعشرين ساعة فلم يظهر بعد، وأما المعنوي فإن ظهر منذ مدة ويعرف ذلك أهل العلم الديني، ومن له فطنة من أهل السبب الدنيوي.

قال الإمام ابن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله تعالى: "ولعل ذلك – أي تقارب الزمان – بسبب ما وقع من ضعف الإيمان، لظهور الأمور المخالفة للشرع من عدة أوجه، وأشد ذلك الأقوات، ففيها من الحرام المحض ومن الشبه ما لا يخفى، حتى أن كثيراً من الناس لا يتوقف في شيء ومهما قدر على تحصيل شيء، هجم عليه ولا يبالي، والواقع – والكلام لا يزال له – أن البركة في الزمان وفي الرزق وفي النبت إنما تكون عن طريق قوة الإيمان، واتّباع الأمر واجتناب النهي، والشاهد لذلك قوله تعالى –ﷻ–: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ **[الأعراف:٩٦]**ا.هـ. **(١٠٩)** ويقابل ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عليهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ **[الأنعام: ٤٤]**، والعياذ بالله، وهذا جزاء لهم على عصيانهم، أما إذا اتقوا وآمنوا فإن الله –ﷻ– يفتح لهم من بركات السماء والأرض .

هذه بعض أقوال أهل العلم في معنى تقارب الزمان، وهي في الحقيقة عندما يتأملها الإنسان يجد أنها متماثلة ومتقاربة، وأرجحها والله تعالى أعلم الثالث والخامس، ويدخل في ذلك ما جاء عن النبي –ﷺ–، في بعض الأحاديث حينما قال النبي –ﷺ–: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))**(١١٠)** فقد فسره أهل العلم بالبركات،

(١٠٩) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٧).

(١١٠) رواه البخاري– كتاب البيوع– بَابُ مَنْ أَحَبَّ البَسْطَ فِي الرِّزْقِ ٢٠٦٧ (٣/ ٥٦) ومسلم– كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ– بَابُ صِلَةِ الرَّحِمِ وَتَحْرِيمِ قَطِيعَتِهَا ٢٥٥٧ (٤/ ١٩٨٢).

فيعمل الإنسان في عمر الثلاثين أو الأربعين سنة ما يعمله الآخر في عمر الستين أو السبعين أو الثمانين سنة، والعلم عند الله -ﷻ-.

فهذه المعاني الواردة في تفسير تقارب الزمان يدل بعضها على بعض، وقد تكون جميعها مراده الله -ﷻ-؛ لأن كل معنى منها له حظ من النظر في هذا المعني، لكن المعني الشامل لها هو التفسير بالتقارب الحسي والمعنوي معا، والتقارب الحسي لم يظهر بعد، لكنه آت لا محالة كما أخبرنا به النبي -ﷺ-، وسيأتي الكلام عليه، أما التقارب المعنوي فهو ظاهر كما تقدم .

قوله: "**وينقص العمل**"، جاء في بعض الروايات العلم، والعلم والعمل قال: "**وينسأ في العمل**"، وفي رواية ابن مسعود وأبي موسي: "**ويرفع العلم**"، وفي أخرى: "**وينزل الجهل، ويرفع العلم**" ونقص العلم الذي جاء في بعض الروايات قيل: المراد به نقص علم كل عالم فلا يستوعب كثيرا مما يتعلمه خلافا للأولين الذين يستوعبون كثيرًا من العلوم التي يصعب على المعاصرين الآن فهمها، وهذا ظاهر، ولا يتعارض مع وجود بعض القلة الذين شابهوا السلف الصالح في قوة العلم والعمل.

وقيل المراد بنقص العلم موت العلماء، يدل على ذلك قول النبي -ﷺ-((**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ**)).**(١١١)**

أما " **نقص العمل**" الوارد في بعض الروايات فيحتمل: أن يكون بالنسبة لكل فرد، فإن العامل إذا داهمته الخطوب، وكثرت عليه المشاكل والمصائب ألهته عن أوراده وعبادته، والنبي -ﷺ- يحدثنا عن آخر الزمان، وما فيه من كثرة الفتن والعياذ بالله. والفتن تترتب عليها المحن والمصائب، والهروج، وكل ذلك يُشغل عن العبادة، ولذلك جاء في صحيح مسلم، قول النبي

(١١١) رواه البخاري-كتاب العلم - بَابٌ: كَيْفَ يُقْبَضُ العِلْمُ ١٠٠(١/ ٣٢) ومسلم –كتاب العلم - بَابُ رَفْعِ الْعِلْمِ وَقَبْضِهِ وَظُهُورِ الْجَهْلِ وَالْفِتَنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ٢٦٧٣ (٤/ ٢٠٥٨).

عليه الصلاة والسلام: ((العبادة في الهرج كهجرة إليّ))(**١١٢**)، يعني أن العبادة في أيام الفتن تساوي في الأجر الهجرة إلى النبي -ﷺ-، وذلك ؛لأن الناس ينشغلون بأنفسهم في أيام الفتن، ويلهون عن العبادة والطاعة لله -ﷻ-، وعلى المسلم الحريص على نفسه في أيام الفتن أن يلجأ إلى الله تعالى بالعبادة، ويمتثل بين يدي الله -ﷻ-ويبدي رغبته، ويعلق قلبه بالله -ﷻ- فإن حبال الله نجاة من الفتن مهما عظمت.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد به ظهور الخيانة في الأمانات والصناعات، نقل ابن حجر عن ابن أبي جمرة قوله: "نقص العمل الحسي ينشأ عن نقص الدين ضرورة ، وأما المعنوي ، فبحسب ما يدخل من الخلل بسبب سوء المطعم وقلة المساعد على العمل ، والنفس ميالة إلى الراحة ، وتحن إلى جنسها ، ولكثرة شياطين الإنس الذين هم أضر من شياطين الجن " وهذا المعنى له علاقة بالعلامة التي ذكرت في الحديث حين قال: "**ويلقى الشح**"، فمن إلقاء الشح قلة العمل فيه، وخاصة فيما يتعلق بالأمانات والصناعات، بالإضافة إلى نقص عمل كثير من طلبة العلم فلا تكاد تفرق بين طالب العلم في عمله وعبادته، وبين الأمي العامي، فلا أثر للعلم عليه، لا في أخلاقه، ولا في معاملته، ولا في عبادته وهذا دليل على فساد قصده في طلب العلم وعدم إخلاصه لله تعالى وجعل العلم وسيلة للحصول على المناصب الدنيوية، فكانت عقوبته الحرمان من ثمرة هذا العلم، وكونه وبالا عليه وحجة عليه يوم القيامة، لذا كان لزاما على طالب العلم أن يكون متميزاً في العمل بالعلم الذي آتاه الله -ﷻ- فذلك من أفضل وسائل حفظ العلم، ونيل بركته، وثباته، ورسوخه، ورفعة الدرجات، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ **[الزمر:٩]**، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ((يستعيذ من علم لا ينفع ومن

(١١٢) صحيح مسلم- كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ- بَابُ فَضْلِ الْعِبَادَةِ فِي الْهَرْجِ ٢٩٤٨ (٤/ ٢٢٦٨).

قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع)) (**١١٣**) ولو أن كل واحد عمل بما علم من العلم لصلحت أحوال الأمة، ولكن لتقاعس أهل العلم في العمل مما آتاهم الله – ﷻ–، وما خصهم به حُرمت الأمة من ثمرة العلم ؛فتجد أننا نسمع مختلف الخطب والمواعظ ولا تتأثر القلوب من ذلك إلا بالنزر اليسير لأن ما كان من القلب، فإنه يصل إلى القلب، وما كان من اللسان لا يتعدى الآذان، ولا يصل إلى القلب –والعياذ بالله– وهذه صورة من الصور المخيفة التي أخبرنا بها النبي –ﷺ– بقوله: "**وينقص العمل أو وينقص العلم**"، وكلا الصورتين ظاهرة فيما نحن فيه في زماننا هذا.

قوله **–ﷺ–**: "**فليقي الشح**". الشح: هو أشد من البخل ؛لأنه يعني معنى البخل مع الحرص، فهو بخل مضاف إليه الحرص، فالشحيح في المنطلق الشرعي هو من منع ما وجب عليه، فمن منع ما أوجب الله عليه من حق في المال فهو الشحيح، والشحُّ محق للمال وبركته يؤيد ذلك قول النبي **–ﷺ–**: "**ما نقص مال عبد من صدقة**"(**١١٤**)، وقوله **–ﷺ–**: ((**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**))(**١١٥**) ولعل المراد بقوله:"**ويلقي الشح**"إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم حتى يبخل العالم بالعلم ويترك التعليم، والفتوى مع حاجة الناس إلى ذلك ، وهذه صورة من صور الشح الذي نعيشها، وأحد أسباب نقص العلم

---

(١١٣) رواه مسلم– كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ– بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ ٢٧٢٢(٤/ ٢٠٨٨).

(١١٤) رواه الترمذي– أَبْوَابُ الزُّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بَابُ مَا جَاءَ مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ ٢٣٢٥ (٤/ ٥٦٣).

(١١٥) صحيح البخاري– كتاب الزكاة– بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} ١٤٤٢(٢/ ١١٥) ومسلم– كتاب الزكاة– بَابٌ فِي الْمُنْفِقِ وَالْمُمْسِكِ ١٠١٠(٢/ ٧٠٠).

والعمل وهو أخطر أنواع الشح، فليس الشحّ في المال فقط، وإنما في العلم أيضا، فيبخل العالم بعلمه ويترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصنعته حتى يترك تعليم غيره رغم الوعيد المترتب على ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "**ومن سئل علما فكتمه جيء به يوم القيامة وقد ألجم بلجام من نار** "**(١١٦)**، والعجب كل العجب تفشي ظاهرة الشح في العلم حتى وصل إلى تعليم كتاب الله -ﷻ-، فأصبح الناس لا يعلّمونه إلا بالأجرة وإلا لم يعلموا أحدا وهذه أعلى درجات الشحّ بالعلم، ونحوه ما دأب عليه كثير ممن ينتسبون إلى العلم والدعوة في زماننا هذا من اشتراط المبالغ المالية مقابل تدريس الناس أو إلقاء محاضرة وبقدر المال تقام الدروس والمحاضرات مع أن هذا من فضل الله عليه الذي ينبغي أن يجتهد في بثه، وإعطائه، وإلقائه مجانا، ولا ينبغي أن ننكر الحق في الأجرة على التعليم، وعلى الإمامة، وعلى تعليم القران، أو غيرها، لكن لا يكون أمر الكسب هو الهدف، وإنما يكون وسيلة لتفرغ الإنسان، ولسد حاجته من أجل أن يجلس للناس في مثل هذه الأمور بدون مبالغة، لأن الأصل أن التعليم مما يُبتغى به وجه الله خاصة، طمعا في ثوابه ورجاء رحمته ومغفرته وفضله، وقد ذكر عن أحد علماء السلف: "أنه مات أحد العلماء الكبار من أقرانه فرآه في المنام، فقال: يا فلان، ماذا صنع الله بك؟ فقال: رحمني ، قال:بم؟ قال: بتعليم الصبيان سورة الفاتحة"**(١١٧)** ومن تدبر هذه القصة لاحظ أمورا غاية في الأهمية فقوله: الصبيان يظهر جانب غياب السمعة تماما، بعيدا عن التصدر أمام الجماهير في مختلف وسائل الإعلام، هذا بالإضافة إلى المشقة المترتبة على تعليم هذه الفئة خاصة.

أما "الفاتحة" فإنها برهان لله -ﷻ-ولا تصح الصلاة إلا بإتقانها، ويكررها المسلم في اليوم مرات عديدة وكلما قرأها كان ذلك في ميزان حسنات معلمه الذي علمه هذه السورة، أضف إلى ذلك أن هذا الصبي إذا تعلم الفاتحة، وعلّم غيره فكل من تعلم هذه السورة يصب ذلك

(١١٦) رواه أحمد في المسند٧٥٧١ (١٣/ ١٨).

(١١٧) البداية والنهاية (١٢/ ٢٠٤).

في ميزان المعلم الأول، ولهذا تصبّ جميع حسنات أمة محمد صلى الله عليه وسلم في ميزان حسناته وعليه فلا معنى لما يفعله بعض العامة بدافع الخير والحب للنبي صلى الله عليه وسلم من إهداء ثواب العبادة للرسول صلى الله عليه وسلم، وما علم هذا المحب أن كل خير يقوم به فهو في ميزان نبينا صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة أن الشحّ من أسوأ الخصال وقد جاء عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه قال:كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: "اللَّهم قني شح نفسي" لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال:"إني إذا وقيت شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل"، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه(**١١٨**) فمن وُقي شرّ الشح، تحقق له الفلاح، وتربية النفس على ذلك تحتاج إلى مجاهدة وصبر ومثابرة ؛لأن النفس أمّارة بالسوء، ولا بدّ من كبحها.

إذن يمكننا تلخيص الشّح في ثلاث صور:

الأولى: بخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى.

الثانية: بخل الصانع بصنعته حتى يترك تعليم غيره من باب احتكار المهنة.

الثالثة: بخل الغني بماله حتى يهلك الفقير من شدة الفقر، وهذا ما نراه بأم أعيننا في هذا العصر حيث فتح الله على قوم بالمال والثراء الفاحش فإذا هم يعيشون حياة البذخ والإسراف غير آبهين بمن حولهم ممن لا يجدون قوت يومهم أو ليلتهم، وبعضهم يتّقي البرد القارص بالكراتين وورق الجرائد، والله المستعان، ولو أن أغنياء المسلمين أدوا زكاة أموالهم فقط لما وجد على وجه الأرض مسلم ذو حاجة ولكن الشح ألقى بظلاله في نفوس البشر، حتى بخلوا بالقليل والكثير، والمال والعلم ونسي المتعلمون بأن التحديث بالعلم هو أحد معاني قول الله-

(١١٨) تفسير ابن كثير، ٤/ ٤٤٦.

تعالى-: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ **[الضحى:١١]**،فالعلم أفضل نعم الله -ﷻ- على العباد؛ لذا يجب بذله لمن احتاجه.

قوله-ﷺ-:" **وتظهر الفتن**"، هذا هو الشاهد الذي قصده الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في إيراد هذا الحديث تحت "باب ظهور الفتن" فقوله: "فتظهر الفتن" المراد كثرتها واشتهارها وعدم الاكتراث بها، ولعل المقصود هنا الفتن التي تؤثر على الدين، وتضر به، وإلا فالفتن موجودة منذ أن كسر الباب بمقتل الشهيد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فمقتله هو أول الفتن ظهوراً، يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده وَالطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ الْفِتَنَ ظَهرت فَقَالَ: أما وابن الْخَطَّابِ حَيٌّ فَلَا إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَهُ فَيَنْظُرُ الرَّجُلُ فَيُفَكِّرُ هَلْ يَجِدُ مَكَانًا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِمَكَانِهِ الَّذِي هُوَ بِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ فَلَا يَجِدُ فَتِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي ذكر رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ"(**١١٩**) فظهرت الفتن بعد سفك الدم الحرام، دم الفاروق - رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

قوله: "**ويكثر الهرج**"، هذه إحدى آثار الفتن، والمراد هنا بالهرج القتل على غير وجه الحق، كما في إجابة النبي -ﷺ-، للصحابي حين سأله "**فقال يا رسول الله أيم هو؟ قال:القتل القتل**" ،وهذا صريح في تعريف الهرج، فهو مرفوع إلى الرسول -ﷺ-، ومعناه: القتل، وقد كررها الرسول -ﷺ- تأكيدا لهذا المعني، وقد جاء في بعض الروايات الموقوفة، "الهرج في لسان الحبشة: القتل"(**١٢٠**) وسيأتي الكلام عنها بعد قليل.

---

(١١٩) مسند أحمد ١٦٨٢٠ (٢٨/ ٢٢) المعجم الكبير للطبراني - ٣٨٤١ (٤/ ١١٦).

(١٢٠) صحيح البخاري –كتاب الفتن- بَابُ ظُهُورِ الفِتَنِ (٩/ ٤٩).

فالهرج له عدة معان لغوية، لكن المراد به هنا القتل ، ومن معانيه اللغوية: الاختلاط، يقال: "هرج الناس إذا اختلطوا واختلفوا"، وهرج القوم في الحديث: إذا كثروا وخلطوا. قال الجوهري: "الهَرْجُ: الفِتْنَةُ والاختلاط، وأصل الهَرْج الكثرة في الشيء"(**١٢١**) وله معان أخرى في اللغة، ذكرها ابن سيده في المحكم ، وهي: شدة القتل وكثرته ،والاختلاط، وكثرة الفتن في آخر الزمان، وكثرة النكاح، وكثرة الكذب، وكثرة النوم، ، وما يراه النائم في النوم الأضغاث الكاذبة ، وعدم إتقان الشيء. (**١٢٢**) هذا من حيث اللغة، أما الاصطلاح الشرعي فالمقصود القتل الذي يكون على غير وجه حق، فيخرج بذلك الجهاد في سبيل الله ،والحدود، والقصاص وغيرها.

ويدخل تقاتل المؤمنين فيما بينهم، حتى لا يعلم القاتل فيما قَتل، ولا المقتول فيما قُتل، بل يظن كل واحد منهما أنه هو المحق، وأنه هو الذي على الحق، وكلٌّ ينبذ الآخر، ويرجو دخول الجنة بقتل صاحبه – والعياذ بالله– وهذه هي الفتنة العمياء الصماء، والبكماء التي تموج كموج البحر– كما وصفها النبي –ﷺ–، وسبب هذه الفتن قلة العلم، والزهد في الرجوع إلى العلماء، ولهذا يقول الإمام مالك –رحمه الله تعالى– وكأنه يتحدث عن زماننا، يقول: "إن أقوامًا ابتغوا العبادة وتركوا العلم حتى خَرجُوا بِأَسْيَافِهِمْ على أمة مُحَمَّد وَلَو طلبُوا الْعلم لم يدلهم على مَا فعلوا"(**١٢٣**) فما يحجز الإنسان عن الافتتان والافتيات إلا العلم الذي يفرق به بين الحق والباطل، فيعرف قدر خطورة إزهاق نفس مسلم بغير حق، يقول تعالى: ﴿ **..أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ **[المائدة:٣٢]**،

(١٢١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٣٥٠).

(١٢٢) المحكم والمحيط الأعظم (٤/ ١٥٩).

(١٢٣) تقدم توثيقه.

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عليه وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣]، إلى غير ذلك من النصوص، فالعلم هو: الذي يحجز عن مثل هذه المصائب، وهؤلاء الذين يتخبطون في دماء المسلمين، إنما يفعلون ذلك بسبب جهلهم، وبعدهم عن العلماء ؛لأن الأعداء اجتهدوا في الفصل بينهم وبين العلماء، وشوهوا صورة العلماء في أذهانهم، واتخذوا منهم رؤوسًا جُهالا، سئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

ومن الأمثلة على دور العلم في الحجب عن مثل هذه الكبائر ما رواه الليث بن سعد –رحمه الله تعالى– قال: جاء رجل إلى عبد الله عمر –رضي الله عنه– فقال: " اكتب لي العلم كله"، فكتب له ابن عمر –رضي الله عنه–إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله وأنت خفيف الظهر من دماء الناس، وخميص البطن من أموالهم، عفيف اللسان من أعراضهم فافعل، والسلام"(**١٢٤**) فلخص له العلم فيما يتعلق بينه وبين الناس في هذه الخصال، وركز على هذه الخصال لأن بعض الناس قد يتورع عن القتل، بل وأكل أموال المسلمين ويتحرى الحلال، ولكنه لا يتورع عن أعراضهم، وذلك لا يقل خطورة عن قتلهم وأكل أموالهم.

قوله: " **قال: يا رسول الله أيم هو؟** " بمعني: أي شيء هو، قال –صلى الله عليه وسلم–: "**القتل القتل**"، فتعريف الهرج بالقتل مرفوع إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وهو من معانيه، ولعل تفسير الهرج بالقتل هنا جاء من باب تسمية الشيء بأثره وما يؤول إليه ، فبسبب الهرج يكثر القتل،نسأل الله العافية والسلامة.

والعرب استعملت لفظ الهرج بمعنى: القتل، ولا يمَنع ذلك استعماله في لغات أخرى كالحبشية أو غيرها مثلما قال أبو موسي الأشعري وغيره من العلماء.

---

(١٢٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١/ ١٦٩).

وهذه الخصال الواردة في هذا الحديث الغرض من ذكرها هو الحذر، والاعتبار، وألّا يكون الإنسان سببا فيها، أو يكون ممن تنطبق عليه مثل هذه الخصال الخطيرة والعياذ بالله، يقول ابن بطال –رحمه الله–يقول: " جَمِيعُ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَشْرَاطِ قَدْ رَأَيْنَاهَا عِيَانًا فَقَدْ نَقَصَ الْعِلْمُ وَظَهَرَ الْجَهْلُ وَأُلْقِيَ الشُّحُّ فِي الْقُلُوبِ وَعَمَّتِ الْفِتَنُ وَكَثُرَ الْقَتْلُ" لكن الحافظ ابن حجر تعقبه فقال:" الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الَّذِي شَاهَدَهُ كَانَ مِنْهُ الْكَثِيرُ مَعَ وُجُودِ مُقَابِلِهِ وَالْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ اسْتِحْكَامُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى مِمَّا يُقَابِلُهُ إِلَّا النَّادِرُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِالتَّعْبِيرِ بِقَبْضِ الْعِلْمِ فَلَا يَبْقَى إِلَّا الْجَهْلُ الصِّرْفُ وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ وُجُودُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ حِينَئِذٍ مَغْمُورِينَ".

ويقول الحافظ بن حجر– رحمه الله–: وَالْوَاقِعُ أَنَّ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةَ وُجِدَتْ مَبَادِيهَا مِنْ عَهْدِ الصَّحَابَةِ ثُمَّ صَارَتْ تَكْثُرُ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ دُونَ بَعْضٍ وَالَّذِي يَعْقُبُهُ قِيَامُ السَّاعَةِ اسْتِحْكَامُ ذَلِكَ كَمَا قَرَّرْتُهُ وَقَدْ مضى من الْوَقْت الَّذِي قَالَ فِيهِ بن بطال مَا قَالَ نَحْو ثَلَاثمِائَة وَخَمْسِينَ سَنَةً وَالصِّفَاتُ الْمَذْكُورَةُ فِي ازْدِيَادٍ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ لَكِنْ يَقِلُّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ وَيَكْثُرُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ وَكُلَّمَا مَضَتْ طَبَقَةٌ ظَهَرَ النَّقْصُ الْكَثِيرُ فِي الَّتِي تَلِيهَا وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ الَّذِي بَعْدَهُ لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرّ مِنْهُ".(**١٢٥**) وهذا موافق لما جاء في حديث حذيفة –رضي الله عنه– قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآله وسَلَّم: ((يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ..)) (**١٢٦**)ومعنى وشي الثوب نقشه.

(١٢٥) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٦).

(١٢٦) أخرجه ابن ماجه في سننه–كتاب الفتن– باب ذهاب القرآن والعلم (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك (٥٢٠/٤)، من حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه. والحديث قوى إسناده الحافظ في فتح الباري(١٦/١٣)، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة(١٧١/١).

ومرّ معنا أن هذا الزمان لايدرك مؤمنا حقا على وجه الأرض لأن هذا الزمان يكون بعد تطهير الأرض من يأجوج ومأجوج؛ فيرسل الله -ﷻ- ريحًا باردة تقبض أرواح المؤمنين فلا تبقي على الأرض نفسا مؤمنة، وتقوم الساعة على شرار الخلق والعياذ بالله.

من فوائد الحديث:

أولا: بيّن الحديث بعض أسباب الفتن، ومنها رقة التدين التي تذهب بركة العيش، وهذا ما سبق الكلام عليه، و الأمر الثاني: نقص العلم، وهو من أسباب الفتن، و الأمر الثالث: نقص العمل بالعلم، وهذا من أسباب الفتن أيضا والعياذ بالله، ومنها الشح، فالعقوبة العقوبة من جنس العمل، فمن من قبض يده عن أمر الله أفلتها فيما حرم الله -سبحانه وتعالى-، ومن حرم نفسه من العكوف على العلم، وكتاب الله وسنة النبي -ﷺ-، عاقبه الله على العكوف على حثالات ومقالات البشر، والروايات، والكلام الذي يضر ولا ينفع، ومن بخل بماله في سبيل الحق أنفقه في أوجه الباطل، ومن أضاع عمره في غير طاعة، ضاع عمره في المعصية ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ **[الكهف:٤٩]** وهذه العقوبات ذكرها النبي -ﷺ-، فرقة التدين، ونقص العلم، والعمل، والشح بمعانيه المختلفة، الشح بالعلم، والشح بالمهنة والحرفة، والشح بالمال، كل هذه تعد من أسباب دخول النفاق والعياذ بالله.

ثانيا: نستفيد من هذا الحديث أهمية استغلال الوقت، وضرورة استثماره، والسعي إلى الأسباب الجالبة للبركة فيه، ومر معنا أن تقارب الزمان يكون حسيًا، ويكون معنويًا، ومن أكبر معاني تقارب الزمان المعنوية هو: ذهاب البركة، والعياذ بالله.فما يقضيه المرء في ساعة يقضيه في يوم أو أكثر، والأسباب الجالبة للبركة في الوقت منها ما هي أسباب حسية، ومنها ما هي أسباب معنوية، فالأسباب الحسية منها تنظيم الوقت، واستثماره فيما يريد بعيدا عن الفوضوية، ومعلوم أن أداء الصلوات الخمس في أوقاتها خير معين على تنظيم. ومن الأسباب المعينة على بركة الوقت استثمار كل وقت فيما يناسبه، فالأوقات ليست واحدة، فبعضها

مناسب لتلاوة كتاب الله -ﷻ-، وبعضها لحضور دروس العلم، وبعضها لطلب الرزق وكفاية الأهل، وأكثر الأوقات بركة البكور، وقد قال الرسول -ﷺ-: " ((**اللهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**))(**١٢٧**)، فأول النهار أبرك من آخره .

وأما أسباب بركة الوقت المعنوية، فأجلها وأعظمها: تقوى الله -ﷻ- فيعلم أنه محاسب ومسئول عن هذا الوقت، فقد قال صلى الله عليه وسلم ((**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**)) (**١٢٨**)فمن استشعر هذه المعاني حرص على وقته كحرصه على ماله، لا يضيع منه شيء، يستثمره قبل فواته، وقد ضرب السلف الصالح -ﷺ- أروع الأمثلة في المحافظة على أوقاتهم واستثمار كل وقت من الأوقات منها فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة اتقاء لله وخشية لعقابه وطاعة لأوامره واستجلابا لفضله﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ **[الأعراف:٩٦]**.

ثالثا: أهمية العلم والعمل، كما هو مفهوم من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بنقص العلم والعمل، والعلاقة بينهما ظاهرة، ويقول العلماء أكثر من ينتكس أيام الفتن من علمه أكثر من عمله، فالعلم يرفع صاحبه كالوتد إن زاد طولاً في السماء وجب أن يزداد رسوخاً في الأرض وإلا سقط، ويشهد لهذا حديث النبي -ﷺ- عندما ضرب المثال بالمؤمن والمنافق، فقال: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تُفَيِّئُهَا الرِّيَاحُ، تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى يَأْتِيَهُ

(١٢٧) أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ١٣٢٠(٢/ ٤٣٩) وابن ماجه في سننه- كتاب التجارات- بَابُ مَا يُرْجَى مِنَ الْبَرَكَةِ فِي الْبُكُورِ ٢٢٣٦ (٢/ ٧٥٢) وصححه الألباني.

(١٢٨) رواه الترمذي –أبواب الزهد-بَابٌ فِي الْقِيَامَةِ ٢٤١٦ (٤/ ٦١٢) وحسنه الألباني.

أَجَلُهُ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ مَثَلُ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا لَا يُقِلُّهَا شَيْءٌ، حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً)) (**١٢٩**)فالخامة من الجذور ثابتة تقاوم العوصف، أما شجرة الأرز فهي شجرة ضخمة في الظاهر، ولكنها ضعيفة الجذور، ولا تقاوم العواصف؛ لذا شبه بها الرسول -ﷺ- المنافق ونحو هذا المثال قوله الله -ﷻ-: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ*تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا*وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ*يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ **[إبراهيم:٢٤-٢٧]**.

رابعا: يؤخذ من هذا الحديث خطر الشح، وأنه أشد أنواع البخل، والحذر منه من أسباب الفلاح، قال الله -ﷻ-: ﴿ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ **[الحشر:٩]**، وحري بكل مؤمن ألا يبخل بجاهه، ولا بشفاعته، ولا مساعدته للآخرين بكل صورة من صور المساعدة، وقد قال النبي **-ﷺ-**: **"خير الناس أنفعهم للناس"(١٣٠)**.

خامسا: يؤخذ من هذا الحديث الموقف الصحيح من الفتن -أعاذنا الله وإياكم منها- فيتجنب المسلم أسبابها، ويهرب منها قبل وقوعها، وقد أرشد الرسول -ﷺ-: **إلى ذلك حين قال: "من سمع بالدجال فلينأ عنه"(١٣١) أي:** فليبتعد عنه ما استطاع فلينأ عنه، ويدخل في هذا، النأي بالنفس عن مطالعة كتب أهل الضلال لئلا يقع في شراك فتن الشبه الخطافة.

---

(١٢٩) رواه البخاري- كِتَابُ المَرْضَى- بَابُ مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ المَرَضِ ٥٦٤٣ (٧/ ١١٥).

(١٣٠) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٥٧٨٧(٦/ ٥٨) والقضاعي في مسند الشهاب١٢٩(١/ ١٠٨) وحسنه الألباني.

(١٣١) رواه أبو داود في سننه –كتاب الملاحم- بَابُ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ٤٣١٩ (٤/ ١١٦) صححه الألباني.

وفي ختام الكلام عن هذا الحديث أود التنبيه على أهمية استغلال الوقت فيما يناسب كل حالة وحين، وقد أجاد ابن القيم رحمه الله حين رسم لنا منهاج حياة الصالحين لنقتدي بهم ونسير على منهجهم المبارك استغلالا للوقت فيما يفيد في الدارين فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا حُشِرَ مَعَهُمْ**))(**١٣٢**) وجاء رجل إلى النبي -ﷺ- فقال: **فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: ((وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا)) قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:** فقال -ﷺ-: **((أنت مع من أحببت))** قال أنس - راوي الحديث- معلّقا: "ما فرحنا بشي كفرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم **((أنت مع من أحببت))** ثم قال وأنا أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجوا الله أن أحشر معهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم"(**١٣٣**)

يقول ابن القيم رحمه الله: "وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدي فريضته كما أمر مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارا تبدو على صفحاته ولسانه

---

(١٣٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث علي ٦٤٥٠ (٦/ ٢٩٣) وقال الألباني "صحيح لغيره".

(١٣٣) رواه البخاري[واللفظ له]-كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم-بَابُ مَنَاقِبِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَبِي حَفْصٍ القُرَشِيِّ العَدَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٦٨٨ (٥/ ١٢)ومسلم-كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ- بَابُ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ٢٦٣٩ (٤/ ٢٠٣٢).

وجوارحه ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر وحببت إليه لقاء الله ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن لا يخلون منها شيء ما أمكنهم فيقبصدون من الوضور أكمله ومن الوقت أوله ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره ويأتون بعد الفريضة بألأذكار المشروعة كالاستغفار ثلاثا وقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام وقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد لا إله إلا الله ولا نعبد إلاإياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ثم يسبحون ويحمدون ويكبرون تسعا وتسعين ويختمون المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ومن أراد المزيد قرأ آية الكرسي والمعوذتين عقيب كل صلاة فإن فيها أحاديث رواها النسائي وغيره ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه هذا دأبهم في كل فريضة فإذا كان قبل غروب الشمس توفروا على أذكار المساء الواردة في السنة نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار لا يخلون بها أبدا فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قسمها بين عباده فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة وهي كثيرة تبلغ نحوا من أربعين فليأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثا ثم يمسحون بها رؤوسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثا ويقرأون آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة ويسبحون ثلاثا وثلاثين ويحمدون ثلاثا وثلاثين ويكبرون أربعا وثلاثين ثم يقول أحدهم اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليه لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبقيك الذي

أرسلت وإن شاء قال باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فإن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وإن شاء قال اللهم رب السموات السبع ورب العرض العظيم ربي ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم هو يذكر الله فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى وتشييع الجنائز وإجابة الدعوة والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال وزيارتهم وتفقدهم وقائم بحقوق أهله وعياله فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره فهذا وظيفته دائما.

وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به بل ما شممنا له رائحة ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم".**(١٣٤)**

(١٣٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣١٤).

الحديث الثاني[الرواية الأولى]: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَبِي مُوسَى، فَقَالاَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا، يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ» وَالهَرْجُ: القَتْلُ

مناسبة الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة من قوله صلى الله عليه وسلم "**إن بين يدي الساعة أيامًا يكثر فيها الجهل، ويرفع فيها العلم** .." وهذا من علامات الساعة الصغرى، وقد مر الكلام فيها بما يغني عن الإعادة، وكثرة الجهل تحصل بارتفاع العلم بسبب موت العلماء، والتناسب بينهما عكسي، وكذلك البدعة، فبظهور الجهل يقل العلم، وبكثرة العلم يقل الجهل، وكذلك السنة بالنسبة للبدعة فكلما ظهرت السنة قلت البدعة، وكلما ظهرت البدعة قلت السنة وضعفت، فإذا مات العالم نقص العلم الذي كان يحمله ويبينه، وينشأ عن ذلك الجهل لما كان عليه ذلك العالم.

والهرج مرّ معنا معناه في الكلام عن الحديث المتقدّم وأشار إلى بعض معانيه في هذا الحديث، وهو في اللغة بمعنى الاختلاط، يقال: "هرج الناس إذا اختلطوا واختلفوا"، وهرج القوم في الحديث: إذا كثروا وخلطوا. قال الجوهري: "الهَرْجُ: الفِتْنَةُ والاختلاط، وأصل الهَرْج الكثرة في الشيء"(**١٣٥**) وله معان عدة مرت معنا في الحديث السابق، وكلها تدور حول هذا المعنى، والهرج هي لفظة عربية ، وقد تكون حبشية واستعملها العرب فأصبحت معربة، ومن الألفاظ ما هو مشترك بين أكثر من لغة، وإطلاقها على الهرج كما في الحديث هنا، باعتبار ما يؤول إليه الهرج، وذلك أن الهرج والاختلاف والاختلاط، يؤدي إلى الفتن المؤدية

(١٣٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٣٥٠).

إلى القتل والاختلاف بين المسلمين، واستعمال العرب الهرج بمعنى القتل لا يمنع من أن تكون المفردة حبشية أيضًا، في هذا المعنى.

من فوائد الحديث:

١- هذا الحديث تأكيد لعلامات الساعة الصغرى المذكورة في الحديث السابق.

٢- التأكيد على رفع العلم وكثرة الجهل مما يؤدي إلى الاختلاف والفتن، فإذا قلّ العلم وكثر الجهل، كثرت الفتن والخلاف، وإذا حصلت الفتن حصل الاقتتال بين المسلمين، كما هو واقع.

٣- الحث على طلب العلم، لأن العلم هو العاصم بإذن الله عز وجل من الفتن ظاهرها وباطنها، لأن العالم يبصر الطريق فلا يختلط عليه الأمر وبذلك يسلم في الفتن.

٤- الحذر من الفتن، وما يحدث فيها وما تسببه من الاختلاط للأمور المؤدي إلى الاختلاف بين المسلمين، والعياذ بالله.

وذكر البخاري بعد هذا الحديث مجموعة من الأحاديث كلها تصب في معنى هذا الحديث، والفائدة من ذلك أن الحديث رُوي عن عبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، سويا رضي الله عنهما، ورواه أبو موسى لوحده، ورواه عبد الله بن مسعود لوحده، وبينهما اختلاف بسيط في الألفاظ.

[الرواية الثانية]: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا شَقِيقٌ، قَالَ: جَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ، وَأَبُومُوسَى فَتَحَدَّثَا: فَقَالَ أَبُو مُوسَى: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا، يُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ» وَالهَرْجُ: القَتْلُ.

وهذا تكرار للحديث السابق، إلا أن الراوي هنا أبو موسى فقط، بينما السابقة عن عبد الله بن مسعود وأبو موسى معاً.

[الرواية الثالثة]: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا جرير عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: إني لجالس مع عبد الله وأبي موسى رضي الله عنهما، قال أبو موسى: سمعت النبي –ﷺ– مثله، والهرج بلسان الحبشة القتل.

وهذه الرواية نسب التحديث فيها إلى أبي موسى فقط، وفيها تصريح بأن كلمة الهرج حبشية الأصل، ولا ما نع من أن يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم ببعض الكلمات الحبشية المعربة، ففي القرآن الكريم والسنة ما ليست أصوله ليست عربية، لكن استعمال العرب لها جعلها عربية، فنزل بها القرآن.

[الرواية الرابعة]: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَحْسِبُهُ رَفَعَهُ، قَالَ: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الهَرْجِ، يَزُولُ فِيهَا العِلْمُ وَيَظْهَرُ فِيهَا الجَهْلُ» قَالَ أَبُو مُوسَى: " وَالهَرْجُ: القَتْلُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ "

وفي هذه الرواية قال: "يزول فيها العلم" وفي الرواية السابقة "يرفع العلم"، وكذلك قال: "يظهر الجهل" وفي السابقة "يكثر الجهل" والمعنى واحد كما هو ظاهر.

الحديث الثالث: وَقَالَ أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنِ الأَشْعَرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: تَعْلَمُ الأَيَّامَ الَّتِي ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّامَ الهَرْجِ؟ نَحْوَهُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ»

مناسبة هذا الحديث لما قبله هي أنه لما ذكر ما تقدم من أمور تكون بين يدي الساعة بيّن أن ذلك منذر بخطر عظيم، وهو قرب قيام الساعة، ومن خطورته أنها لا تقوم، إلا على شرار الناس.

وهذا الحديث لا يعارض ما جاء في حديث: " **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خلفهم، حتى نقوم الساعة**"(**١٣٦**) إذ المراد قرب قيام الساعة، وهي الريح التي يبعثها الله -ﷻ-، بين يدي الساعة، فتقبض أرواح المؤمنين بعد نزول المسيح -عليه السلام-، وهلاك يأجوج ومأجوج، وقد جاء في حديث أبي هريرة عند مسلم: ((إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ - قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ، وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ))(**١٣٧**) فيُقبض المؤمنون قبل أن تقوم الساعة،فلا تقوم إلا على شرار الخلق والعياذ بالله.

ويعيد لنا هذا الحديث معنى أحاديث كثيرة سبقت معنا، منها حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي -ﷺ- قال: ((**لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق**))(**١٣٨**) وحديث مسلم رحمه الله تعالى، يقول-ﷺ-: ((**لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله**))(**١٣٩**) فهذه النصوص كلها تدل على معنى هذا الحديث.

وجاء أيضًا في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في قصة الدجال وعيسى ويأجوج ومأجوج(.. **فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**)) (**١٤٠**)واختلف في معنى **يتهارجون**، فقيل معناها يتسافدون، أي يفعلون

---

(١٣٦) أخرجه مسلم في باب« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » ٥٠٥٩ (٦ / ٥٢).

(١٣٧) صحيح مسلم- كتاب الإيمان- بَابٌ فِي الرِّيحِ الَّتِي تَكُونُ قُرْبَ الْقِيَامَةِ، تَقْبِضُ مَنْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ ١١٧ (١/ ١٠٩).

(١٣٨) رواه مسلم- كتاب الإمارة- بَابُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ» ١٩٢٤ (٣/ ١٥٢٤).

(١٣٩) رواه مسلم- كتاب الإيمان- بَابُ ذَهَابِ الْإِيمَانِ آخَرِ الزَّمَانِ ١٤٨ (١/ ١٣١).

(١٤٠) تقدم تخريجه.

الأفعال القبيحة، وقيل يتقاتلون كما يرجح الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى ، وتؤيده أحاديث الباب والله تعالى أعلم.

بَابٌ: لاَ يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ

ذكر البخاري رحمه الله في هذا الباب، حديثين، والأول هو الذي أخذ منه ترجمة الباب "لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه" والآخر، حديث أم سلمة رضي الله عنها في رؤيا النبي -ﷺ-.

ومناسبة الباب لكتاب الفتن ظاهرة، وهي أنّ آخر الزمان هو شره، وفيه تكثر الفتن والعياذ بالله تعالى، وهذا له علاقة بآخر حديث في الباب السابق، حيث قال النبي -ﷺ-: ((**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء**)) فكلما قرب الزمان من آخره وقيام الساعة، ازداد الشر والعياذ بالله، كما أنه كلما قرب الزمان من عهد النبي -ﷺ-، قلّ شرُّه، وكلما بعد عن عهد النبي -ﷺ-، ازداد شره، إلى قيام الساعة التي لا تقوم إلا على شرار الخلق والعياذ بالله.

الحديث الأول: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ، قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ» سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: "**أتينا أنس بن مالك؛ فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج**" القائل هو الزبير بن عدي كان من صغار التابعين، وكان قاضيًا وفي رواية:"**ما يلقوا**" وهذا ما يسمى في البديع التفات، والحجاج بن يوسف الثقفي، الأمير الظالم المشهور، والمراد من شكواهم ما يلقوه من ظلم عليهم، وظلم الحجاج معروف ومشهور، وقد روي عن الشعبي قوله: "كَانَ عُمَرُ فَمَنْ بَعْدَهُ إِذَا أَخَذُوا الْعَاصِيَ أَقَامُوهُ لِلنَّاسِ وَنَزَعُوا عِمَامَتَهُ فَلَمَّا كَانَ زِيَادٌ ضَرَبَ فِي الْجِنَايَاتِ بِالسِّيَاطِ ثُمَّ زَادَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ حَلْقَ اللِّحْيَةِ فَلَمَّا كَانَ بِشْرُ بْنُ مَرْوَانَ سَمَّرَ كَفَّ الْجَانِي بِمِسْمَارٍ فَلَمَّا قَدِمَ الْحَجَّاجُ قَالَ هَذَا كُلُّهُ لَعِبٌ فَقَتَلَ بِالسَّيْفِ".(**١٤١**)

(١٤١) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٠).

وقوله: "ثم زاد مصعب حلق اللحية" هذا من باب التعزير والعقوبة ولا يمكن أن يدل على جواز حلق اللحية، وقد كانوا يعدون حلقها مُثلى فكانوا إذا أرادوا أن يعزروا الجاني المجرم حلقوا لحيته، فيظهر للناس أن حالق اللحية هو المجرم، وبصرف النظر عن جواز هذه العقوبة أو عدم جواز التعزير بها، فإن هذا يدلّنا على قيمة اللحية عند المسلم، ومنزلتها عنده، أما الآن فكثير من المسلمين، يدفع الأموال من أجل أن يحلق لحيته، وهذا مخالف لسنة النبي –ﷺ–، من قوله وفعله وتقريره عليه الصلاة والسلام، فالنبي –ﷺ–، كان كثّ اللحية، وأمر– ﷺ– أمرًا صريحًا، بإطلاق اللحية فقال عليه الصلاة والسلام: ((وفّروا اللحى))(**١٤٢**) وقال: ((أَنْهَكُوا الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللِّحَى))(**١٤٣**) وغيرها من الروايات الصحيحة الواضحة من النبي –ﷺ–، في الأمر بإعفاء اللحية وعدم أخذ شيء منها.

ولا يجوز التعزير بحلقها لأنه تعدٍّ على شعيرة وسنة من سنن النبي –ﷺ–، التي أمر بها.

فالشاهد أن التعزيرات كانت في عصر الخلافة خفيفة ثم تدرجت إلى أن وصلت إلى حد القتل زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، فكان يقتل من يستحق ومن لا يستحق والعياذ بالله ، ولذلك شكا التابعون إلى أنس أفعاله فقال لهم: " **اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان، إلا الذي بعده شر منه**" وجاء تأكيد ذلك في قول أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، مرفوعا إلى النبي –ﷺ–: ((**ما من عام، إلا والذي بعده شر منه**))(**١٤٤**).

قوله: ((**حتى تلقوا ربكم**)) يعني أن الزمان يتدرج في النزول، كلما مر زمن، فما بعده شر مما قبله، حتى يبعث الله العباد.

---

(١٤٢) رواه البخاري– كتاب اللباس–بَابُ تَقْلِيمِ الأَظْفَارِ٥٨٩٢ (٧/ ١٦٠).

(١٤٣) رواه البخاري– كتاب اللباس –بَابُ إِعْفَاءِ اللِّحَى ٥٨٩٣ (٧/ ١٦٠) ومسلم– كتاب الطهارة– بَابُ خِصَالِ الْفِطْرَةِ ٢٥٩ (١/ ٢٢٢).

(١٤٤) رواه الترمذي في الفتن وصححه ٢٢٠٦ (٤/ ٤٩٢).

قوله: "**سمعته من نبيكم -ﷺ-**" يعني الأمر بالصبر وأنه ما من زمان إلا والذي بعده شر منه، وهذا الحديث علم من أعلام نبوة نبينا -ﷺ-، لأنه أخبر بأمر لم يتحقق، وذلك مما لا يُعلم بالرأي وإنما يعلم بالوحي.

من فوائد الحديث:

١- أن التدرج في انقراض الخير وظهور الشر سنة إلهية، لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه.

٢- أن ذلك على باعتبار الجملة لا باعتبار الأفراد والأشخاص، فقد يكون في زمان متأخر أفراد خير من آخرين في زمن متقدم، لكن من حيث الجملة ما من زمان إلا والذي قبله خير منه، وتلك سنة إلهية والتاريخ خير شاهد على ذلك.

وقولنا باعتبار الجملة لا الأفراد يدل عليه قول النبي -ﷺ-: ((**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء**))(**١٤٥**) فالمقصود أولئك القلة من الأفراد والأشخاص الذين سيكونون في آخر الزمان، وجاء وصفهم على لسان النبي -ﷺ-، وأثنى عليهم وقال في رواية عند الترمذي:((**الذين يصلحون ما أفسد الناس**))(**١٤٦**) .

ومن أرجى النصوص في هذا المعنى حديث خرج النبي -ﷺ-، في آخر حياته عليه الصلاة والسلام، إلى بقيع الغرقد، وسلم على الأموات، والقبور، -ﷺ-، كالمودع لهم، فلما رجع -ﷺ-، قال: ((**وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي**))، **قَالَ: فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانَكَ؟ قَالَ:((أَنْتُمْ**

(١٤٥) رواه مسلم- كتاب الإيمان- بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامِ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا ١٤٥ (١/ ١٣٠).

(١٤٦) سنن الترمذي – أبواب الإيمان-بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا ٢٦٣٠ (٥/ ١٨).

أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي))(١٤٧) ، فالنبي -ﷺ-، يتمنّى رؤيتهم وهم المؤمنين به -ﷺ-، الذين حرموا رؤيته عليه الصلاة والسلام، وهذا يشمل كل من التزم الإيمان بالنبي -ﷺ-، وتمسك بسنته إلى قيام الساعة.

فدل هذا الحديث، وحديث "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ" على بقاء المؤمنين والأخيار في كل زمان ومكان، ولا يخلو منهم زمان ولا مكان، وما من زمان ولا مكان، إلا وفيه قائم لله بحجة، من المؤمنين الصادقين الموحدين لله عز وجل، الملتزمين بسنة نبيهم -ﷺ-، حتى يأتي أمر الله.

٣- قد يستشكل بعض الناس إطلاق هذا الحديث " ما من زمان إلا والذي بعده شر منه" لأنه قد يجد بعض الأزمنة المتأخرة خير من أخرى متقدمة ومن الأمثلة على ذلك زمان الحجاج بن يوسف الظالم، الذي تمت الإشارة إليه، فإنه جاء بعده بيسير زمن عمر بن عبد العزيز، الذي كثر في زمنه العدل، ورفع الظلم،وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة:

أولها: ما ذهب إليه الحسن البصري رحمه الله تعالى، من أن ذلك محمول على الأغلب، فقد سئل رحمه الله عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، فقال : **"لابد للناس من تنفيس"(١٤٨)** يعني لا يستمر الظلم والجور دائما، بل لابد للمسلمين من تنفيس الصعداء، فيتنفسون العدل والخير ورفع الظلم، كما حصل في فترة عمر بن عبد العزيز.

ثانيا: من العلماء من أجاب بأن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر المتقدم على مجموع العصر فإن عصر الحجاج كان فيه الكثير من الصحابة كأنس بن

---

(١٤٧) رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه ١٢٥٧٩ (٢٠/ ٣٨).

(١٤٨) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢١).

مالك وغيره، مع ما فيه من الظلم والجور، ، أما عصر عمر بن عبد العزيز –رحمه الله تعالى– فلا يوجد فيه صحابة، ففضل زمن الحجاج رغم العدل والخير في زمن عمر، لما فيه من بقية أنوار النبوة، التي يحملها الصحابة رضوان الله عنهم، الذين أدركوا النبي –ﷺ–، ولا شك أن الزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي ليس فيه أحد منهم، فقد جاء في الصحيحين قول النبي –ﷺ–: ((**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم**))(**١٤٩**) فهذا دليل على أن كل ما ابتعد الناس عن زمن النبي –ﷺ–، زاد الشر وقلّ الخير، وجاء في حديث مسلم، قول النبي –ﷺ–: ((**أصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**..))(**١٥٠**) فهذا يدل على أن العصر الذي فيه أصحاب النبي –ﷺ– ، وإن كان فيه ظلم وجور إلا أنه أفضل وخير من العصر الذي ليس فيه أحد من الصحابة رضوان الله عنهم.

ثالثا: من الأجوبة ما ذهب إليه ابن مسعود –رضي الله عنه–، وهو الراوي لهذا الحديث، حيث قال: ((**لَسْتُ أَعْنِي رَخَاءً مِنَ الْعَيْشِ يُصِيبُهُ وَلَا مَالًا يُفِيدُهُ وَلَكِن لَا يَأْتِي عَلَيْكُم يَوْم الا وَهُوَ أَقَلُّ عِلْمًا مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي مَضَى قَبْلَهُ**))، يقول الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى: "وهو أولى بالاتّباع" ويعني بذلك أن راوي الحديث هو أعلم الناس بما روى وقد صرح هنا بأن المقصود كثرة العلم وقلته لا رغد العيش وشحه، فالعلم الشرعي والعمل به يتناقصان شيئًا فشيئًا، حتى يتحقق ما جاء في قول النبي –ﷺ– : ((**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ**

(١٤٩) صحيح البخاري– كتاب الصحابة– بَابُ فَضَائِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٦٥١ (٥/ ٣) صحيح مسلم–كتاب الفضائل– بَابُ فَضْلِ الصَّحَابَةِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ٢٥٣٣ (٤/ ١٩٦٢).

(١٥٠) صحيح مسلم– كتاب الفضائل– بَابُ بَيَانِ أَنَّ بَقَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَانٌ لِأَصْحَابِهِ، وَبَقَاءَ أَصْحَابِهِ أَمَانٌ لِلْأُمَّةِ ٢٥٣١(٤/ ١٩٦١).

))(**١٥١**) وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: "**لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَهُوَ أَشَرُّ مِمَّا كَانَ قَبْلَهُ أَمَا إِنِّي لَا أَعْنِي أَمِيرًا خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَلَا عَامًا خَيْرًا مِنْ عَامٍ وَلَكِنْ عُلَمَاؤُكُمْ وَفُقَهَاؤُكُمْ يَذْهَبُونَ ثُمَّ لَا تَجِدُونَ مِنْهُمْ خَلَفًا وَيَجِيءُ قَوْمٌ يُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ**"(**١٥٢**) وهذا دليل أيضًا باعتبار الجملة، وإلا فمن الممكن أن يكون من الأفراد من يفوق بعض العلماء في العصر الذي قبله.

رابعا: يقول الحافظ ابن حجر: "**وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَزْمِنَةِ الْمَذْكُورَةِ أَزْمِنَةَ الصَّحَابَةِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ فَيَخْتَصُّ بِهِمْ**" فهم متفاضلون بناء على أسبقيتهم إلى الإسلام والبلاء فيه، قال تعالى : { لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير}[الحديد:١٠] فيكون الأولون من المهاجرين والأنصار، أفضل من مسلمة الفتح، ومسلمة الفتح أفضل ممن أسلم في حجة الوداع وهؤلاء أفضل ممن جاءوا من بعدهم.

لكن الصحابي أنس رضي الله عنه، حدّث بهذا الحديث بقصد عمومه والسياق دال على ذلك إذ سبب تحديثه به هو ما وقع من الظلم زمن الحجاج فحدث به وأمرهم بالصبر.

وهنا خبر فيه ضعف يَرِد على ألسنة الناس يستدلون به لهذا الاحتمال وهو: " **أُمَّتِي كَالْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ** "(**١٥٣**) .

والراجح من هذه الأقوال والله أعلم، أن هذه الخيرية والشرّية هي على سبيل الإجمال، كما سبق.

---

(١٥١) رواه مسلم- كتاب الإيمان- بَابُ ذَهَابِ الْإِيمَانِ آخَرِ الزَّمَانِ ١٤٨ (١/ ١٣١).

(١٥٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢١).

(١٥٣) المعجم الأوسط ٣٦٦٠ (٤/ ٧٨) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ٥٦)"فيه موسى بن عبيدة الزبذي وهو ضعيف".

٤- أن الخيرية على سبيل الترقي، فكلما قرب العهد من عهد النبي -ﷺ-، ومن نبوة النبي -ﷺ-، كلما زاد الخير، وكلما بعد الزمان عن عهد النبي -ﷺ-، كلما ازداد الشرّ، هذا معنى أن الخيرية على سبيل الترقي وأن الشر على سبيل التولي، لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه.

٥- تسلية للمؤمنين لما يلقونه من ظلم وجور الولاة، ومن أولئك الظلمة الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي تعدى على بعض الصحابة وكبار التابعين، وآذاهم، فقتل البعض وجلد بعضا، وضرب بعضا، ظلما وعدوانا، لكنهم مع ذلك أخذوا بنصيحة النبي -ﷺ-، وصبروا على جوره حتى أراحهم الله تعالى منه.

٦- الحث على الصبر حال جور وظلم الولاة، وعدم الخروج عليهم، ولذلك قال النبي -ﷺ-: "فاصبروا" ومرت معنا أحاديث الأمر بالصبر على جور الولاة، وجاء في عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، حين استوصاه الناس: " **اتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر**"(**١٥٤**) يستريح البر بأن يموت، ويلقى الله -عزوجل-، ويستراح من فاجر بأن يأخذه الله عز وجل ويريح العباد منه، فالله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

٧- أن أمور الدنيا ينظر المرء فيها إلى من هو دونه، وفي ذلك تزكية له حتى لا يزدري نعمة الله عليه، أما في أمور الدين فينظر إلى من هو فوقه، ولا يجوز له أن ينظر إلى من هو دونه، فيقول مثلا: أنا أحسن من هؤلاء الخمارين وهؤلاء الفاسقين، ويدخل في ذلك قول بعضهم "نحن أحسن من غيرنا"إلا إن قصد الناحية الدنيوية فقط، ليستذكر نعمة الله عليه، في الأمن والأمان ورغد العيش، وفي غير ذلك من

(١٥٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٨٥٤٥(٤/ ٥٥٢) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وَقَدْ كَتَبْنَاهُ مُسْنَدًا مِنْ وَجْهٍ لَا يَصِحُّ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ " ووافقه الذهبي.

الأمور، أما من الناحية الدينية فلا، لأن قدوتنا هو النبي -ﷺ-، فننظر إلى ما كان عليه ونجتهد في التأسي به-ﷺ- .

الحديث الثاني: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، ح وحَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي أَخِي، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلاَلٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَتِيقٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ هِنْدٍ بِنْتِ الحَارِثِ الفِرَاسِيَّةِ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَزِعًا، يَقُولُ: ((سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ – يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ لِكَيْ يُصَلِّينَ – رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ)).

ذكر البخاري هذا الحديث بإسناده إلى محمد بن أبي عتيق عن ابن شهاب ،عن هند بنت الحارث الفراسية، وهذه من بني فراس، وهم بطن من كنانة، وهم أخوة قريش.

مناسبة الحديث للباب ظاهرة في قوله: ((ماذا أنزل من الفتن)) إضافة ما بيان ما يجب حال وقوع الفتن وهو التضرع إلى الله بالدعاء والصلاة وأنواع العبادات والانكسار بين يديه، -ﷻ- كما هو مفهوم من قوله: ((من يوقظ صواحب الحجرات)).

قوله: ((**استيقظ رسول الله -ﷺ-، ليلة فزعًا**)) يعني استيقظ من نومه -عليه الصلاة والسلام- بعد أن أوحي إليه في منامه، ما أنزل الله -ﷻ-، وما أنزل من الفتن، ما جعله يفزع من هول ما رأى من ذلك.

قوله: ((**يقول:سبحان الله**)) في رواية: ((**لا إله إلا الله**)) هذا دليل على مشروعية ذكر الله عز وجل عند الخوف والفزع، فإذا خاف الإنسان وفزع، فعليه أن يذكر الله عز وجل وأن يسبح الله، ويحمده ويكبره، فهذه كلها جاءت عن النبي -ﷺ-، ومر معنا شيء من ذلك فيما تقدم.

قوله -ﷺ-: ((**ماذا أنزل الله من الخزائن؟**)) هذا سياق استفهام في معنى التعجب، والخزائن ما يحفظ فيه الشيء، والمراد بها أحد ثلاثة معاني:

الأول: أن تكون الخزائن هنا بمعنى الرحمة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ**.. وَيقابل ذلك العذاب الذي عبّر عنه في الحديث بالفتن؛ لأنها من أسبابه، فكأنه جمع بين ما أنزله الله من الخير من رحمة الله في الخزائن، وما أنزله الله عز وجل من الفتن والشر، وهذا مثل قول الله -ﷻ-:﴿ **وَنَبلوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً وَإِلَينا تُرجَعونَ** ﴾ **[الأنبياء:٣٥]**.

الثاني: أن الخزائن هي أوعية تُملأ بالخير أو الشر، إما بأعمال صالحة أو سيئة، قبل حلول الفتن، ومن هذه الخزائن الليل والنهار، لذا ذهب بعض أهل العلم أن المراد بالخزائن هنا هي الأوعية التي تحفظ فيها الأعمال من خير أو شر، فينبغي للمؤمن الحرص على ملء وقته بالخير قبل نزول الفتن، قال النبي -ﷺ-: ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ**))(**١٥٥**) وقال -ﷺ-: ((**اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك**))(**١٥٦**) .

الثالث:ما يفتح من خزائن فارس والروم وغيرها مما فتح للصحابة من الدنيا، وقرن بما أنزل من الفتن لأن ما يفتح من الخزائن هو من أكثر أسباب الفتن، فإن التنازع عليها والتنافس فيها، يجر إلى الفتن والعياذ بالله، وهذا لا يلزم منه أن كل من أدركه فتح الخزائن أن يقع في شر هذه الفتن، لكن الدنيا بلا شك هي أحد أسباب الفتن والعياذ بالله، ولهذا قال النبي -ﷺ-: ((**لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى**

(١٥٥) رواه البخاري- كتاب الرقاق - بَابٌ: لاَ عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ٦٤١٢(٨/ ٨٨).

(١٥٦) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - ١١٨٣٢ (١٠ / ٤٠٠) والحاكم في ٧٨٤٦ (٤ / ٣٤١) وقال :"هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبي .

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ))(**١٥٧**) وقد وقع ما كان يخشاه النبيّ عليه الصلاة والسلام.

قوله-ﷺ-: ((**وماذا أنزل من الفتن**)) يعني بسبب تلك الخزائن أو بغيرها من الأسباب، وهنا ملحظ مهم، وهو أن النبي -ﷺ-، لما ذكر الخير قال: ((ماذا أنزل الله من الخزائن)) ولما ذكر الشر قال: ((ماذا أنزل من الفتن)) فهنا عند ذكر الفتن حُذف الفاعل وبُني الفعل للمجهول، وهذا من باب الأدب مع الله -ﷻ-،مثل قوله -تعالى-: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾ **[الجن:١٠]** فلما ذكر الرشد أظهر الفاعل، ولما ذكر الشر حذف الفاعل تأدبًا مع الله، مع علمنا أنه ما من شيء يخرج عن إرادة الله تعالى.

قوله: ((**من يوقظ صواحب الحجرات**)) في رواية أخرى: ((**أيقظوا**)) والحجرات هي منازل زوجات النبي -ﷺ-، التي ذكرها الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ *وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ **[الحجرات٤-٥]** وسبب المناداة ما ذكر في الحديث من قول أم سلمة:" **يريد أزواجه لكي يصلين**" فيريد إيقاظهن من أجل الصلاة، وألا يغفلن عن العبادة، ويعتمدن على كونهن أزواج النبي -ﷺ-.

قوله: ((**رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**)) رب تأتي للسؤال أحيانًا مثل كم، فكأنه قال: "كم كاسية في الدنيا.." واختلف العلماء في المراد بقوله: ((**كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**)) على أقوال:

---

(١٥٧) رواه البخاري- كتاب الرقاق- بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا ٦٤٢٥ (٨/ ٩٠) ومسلم- كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ ٢٩٦١ (٤/ ٢٢٧٣).

١- أنها كاسية في الدنيا بالثياب، لغناها، فهي غنية بالثياب وغيرها في الدنيا لكنها عارية في الآخرة من الثواب، لعدم العمل في الدنيا للآخرة.

٢- أنها كاسية بالثياب لكنها شفافة ولا تستر عورتها، فتعاقب في الآخرة بالعري جزاء ذلك والعياذ بالله.

٣- وقيل: كاسية من نعم الله عارية من الشكر، لله -ﷻ-، الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب.

٤- وقيل: كاسية أي كاسية جسدها، لكنها تشد خمارها من ورائها، فيبدو صدرها فتكون عارية فتعاقب بذلك في الآخرة.

٥- وقيل:كاسية في الدنيا من خلعة التزوج بالرجل الصالح لكنها عارية في الآخرة من العمل، فلا ينفعها صلاح زوجها.

٦- وقيل كاسية للشرف في الدنيا لكونها أهل التشريف وعارية يوم القيامة.

وهنا يعلق بعض العلماء على من سبقوه ممن شرحوا هذا الحديث وأمثاله فيقول:" وأهل العلم قالوا كلاما كثيرا حول تفسير هذا الكلام؛ لأنهم لم يقفوا على ما وقفنا عليه من لباس النساء في هذه الأزمان، وإلا لوجدوا تفسيره واضحا ".

من فوائد الحديث :

١- وجود العلاقة بين فتح الخزائن والأموال وبين الفتن، فكثرة المال سبب في وقوع الفتن، وسبب للاختلاف والتنازع والتنافس بين الناس، وهذا ظاهر في الخاصة والعامة، وقد يحصل ذلك بين الأقارب خاصة بسبب الإرث، فتحصل الفتنة بين الورثة.

٢- أن الأعمال الصالحة، تقي من الفتن والعياذ بالله، والشاهد من ذلك ، قول النبي -ﷺ-: ((**من يوقظ صواحب الحجرات**)) لما ذكر نزول الفتن، نادى عليه الصلاة والسلام، لهذه صواحب الحجرات للعبادة والدعاء، والتضرع لله عز وجل، فهي تحمى لله عز وجل من الوقوع في الفتن.

٣- وفي الحديث أيضا أهمية التضرع والدعاء عند نزول الفتن، فإذا نزلت بالمسلمين مصيبة أو فتنة، وجب عليهم الرجوع إلى الله -ﷻ-، والانكسار بين يديه والدعاء والصلاة، خاصة في أوقات الإجابة.

٤- وفيه أيضًا مشروعية قول: سبحان الله، ولا إله إلا الله، عند الفزع والقيام من النوم، وخير الذكر بعد القرآن هو قول: لا إله إلا الله، وخير دليل على ذلك، قول النبي -ﷺ-: ((**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**))(**١٥٨**) ومما يناسب أن ينبّه عليه في هذا المقام، هو أن يعوِّد نفسه على قول لا إله إلا الله عند استيقاظه من النوم رجاء أن يقولها حين يوقظه الملكان في القبر بعد وفاته.

فذكر الله -ﷻ- مشروع عند المصائب وعند الفتن، وعند الأمور المفزعة .

٥- في هذا الحديث أيضًا استحباب إيقاظ الرجل لزوجه بالليل للعبادة، وهذا مستفاد من قوله-ﷺ-: ((**من يوقظ صواحب الحجرات**)) ولا سيما عند أيام

(١٥٨) أخرجه مالك في الموطأ(مرسلا)- باب ما جاء في الدعاء٣٢ (١/ ٢١٥) ورواه الترمذي في سننه- كتاب الدعوات ٣٥٨٥(٥/ ٥٧٢) وقال: " هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ هُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، وَهُوَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الأَنْصَارِيُّ المَدِينِيُّ وَلَيْسَ هُوَ بِالقَوِيِّ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ" وحسنه الألباني.

الفتن والمحن وأيام المصائب، وقد ذكر المصنف هذا الحديث في كتاب العلم في باب العلم والعظة في البيت، فالنبي -ﷺ-، يوقظ زوجاته -ﷺ- في آخر الليل.

٦- في الحديث أيضًا استحباب الإسراع إلى الصلاة، عند خشية الشر، تحقيقا لقول الله -ﷻ-: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ **[البقرة:٤٥]** وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر صلّى،(**١٥٩**) وهكذا، كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فإنهم كانوا إذا أصابتهم مصيبة هرعوا إلى الصلاة، لأنها من أكبر عوامل التثبيت والصبر، وروي عن ابن عباس صحابي ابن عباس رضوان الله عنهما، أنه أخبره رجل بموت ابنه، فنزل مباشرة من الرحالة وكبر وصلى ركعتين، فسئل عن ذلك فقال: ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾(**١٦٠**) والإنسان يستعين بالصلاة عند حلول المصائب، لأنها من أكبر وسائل التثبيت والصبر، ولذلك لما ذكر النبي ما نزل وما أنزل من الفتن، أمر بإيقاظ صواحب الحجرات ليصلين.

---

(١٥٩) رواه أبو داود في السنن- أبواب قيام الليل-بَابُ وَقْتِ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّيْلِ ١٣١٩(٢/ ٣٥) وحسنه الألباني.

(١٦٠) إحياء علوم الدين (٤/ ١٣٣).

باب قول النبي ﷺ : «من حمل علينا السلاح فليس منا»

مناسبة الباب للكتاب:

بعد أن ذكر المصنف–رحمه الله تعالى_ باب ظهور الفتن وما ذكر فيه من أحاديث عن كثيرة الهرج الذي هو القتل، ناسب أن يذكر الأحاديث التي تنهى عن أسباب القتل، ومنها حمل السلاح على المسلمين، وحمله كذلك في مجامعهم إلا في حرز مخافة أن يُصيبهم فيؤذي المسلمين.

فذكر رحمه الله في ترجمة هذا الباب حديثين، ثم ذكر بعد ذلك أربعة أحاديث وكلها في التحريم من حمل السلاح في مجامع الناس بغير حاجة مخافة أن يُصيبهم، وهو تنبيه نبوي بأخذ الاحتياطات اللازمة عند ضرورة حمل السلاح.

وما ذاك إلا لحرمة دم المسلم، والحرص على سلامة المسلمين من الأذى وسد الذرائع المؤدية إلى شيءٍ من إيذاء المسلمين بسلاحٍ أو غيره.

الحديث الأول:

قال البخاري رحمه الله حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**».

هذا الحديث هو الذي أخذ منه الإمام البخاري ترجمة هذا الباب ورواية مسلم في صحيحه: «**من سل علينا السيف فليس منا**»، وجاء في لفظ: ((**من شهر علينا السلاح**)) وجاء عند البزار: ((**من رمانا بالنبل فليس منا**)) وهذه كلها بمعنى واحد، فحمل السلاح يشمل جميع أنواع الأسلحة ويشمل أيضا جميع الأغراض التي يُحمل فيها السلاح، فمنع حمل السلاح على المسلمين في مجامعهم وإخافتهم وإدخال الرعب عليهم وجاء الحديث بروايات متعددة ليدل على جميع أنواع السلاح فدل ذلك على أنه شاملٌ لكل سلاح، ومن

ذلك الأسلحة الفتاكة والأسلحة النارية في عصرنا الحاضر وغيرها وهي داخلة في عموم هذا النهي وهذا التحريم بل هي أولى، لأن فتكها أعظم وخطرها أكبر.

فلذلك جاءت هذه الألفاظ لتشمل جميع أنواع السلاح، بل يشمل النهي جميع أغراض الحمل التي يمكن أن تكون سببا في إيذاء المسلمين حتى وإن كان عن غير قصد.

ويدل على ذلك:

أولا: أن هذه الأغراض أشدها وأعظمها جرماً وأكبرها عند الله سبحانه وتعالى ذنباً هي ما دلت عليه الأحاديث وهو إرادة القتل والإخافة وإدخال الرعب على المسلمين.

فحمل السلاح على المسلمين من أجل قتلهم أو من أجل إخافتهم وإدخال الرعب عليهم هو أشد أنواع الحمل، وهو أولى بهذا التحريم في هذا النهي الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث.

ويدخل في ذلك وهو غرضٌ **ثاني**، في ذلك يدخل إشارة بعدم حمل السلاح وإن لم يرد القتل فيهم وإيقاع القتل فيهم ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: «**لا يُشير أحدكم على أخوه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ..في يده فيقع في حفرة من النار**»، والعياذ بالله، وهذا هو الحديث الرابع الذي ذكره الإمام البخاري وسيأتي الكلام عليه بعد قليل إن شاء الله.

كذلك يشمل هذا الوعيد يشمل المزاح وإن لم يقصد القتل والإخافة، ويدل على ذلك ما جاء في الصحيح، ((من أشار إلى أخيه بحديده فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه))والحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه.

كما يشمل المفاخرة والفرح، والتحية كما يُفعل في بعض مناسبات الأفراح وغيرها من إطلاق النار، فهو داخلٌ في هذا الذنب وداخلٌ في هذا التحذير النبوي الذي جاء في الحديث عن النبي ﷺ.

بل يشمل حتى مجرد المناولة وهو غير مؤمَّن، يدل على هذا ما ورد في الحديث عند الترمذي بإسنادٍ صحيح، عن جابر –رضي الله تعالى عنه– قال: «**نهى النبي ﷺ أن يُتعاطى السيف مسلولا**»، ومعنى ذلك أن يتناول السلاح من غير تأمين.

وأيضاً يشمل تجربة السلاح في مجامع الناس وتقليبه، والنظر فيه وفتكه والإشهار به في مجمع الناس، كالمساكن والمجامع في الأسواق ومجامع الأفراح وغيرها.

وفي هذا جاء حديث أبي سعيد الخدري–رضي الله تعالى عنه–: «**نهى رسول الله ﷺ عن تقليب السلاح في المسجد**»، والمسجد يُعنى بذلك المسجد على حقيقته ومجامع الناس لما في ذلك من الخطر الذي قد يقع من تقليب هذا السلاح وفتك دماء المسلمين من غير سبب والعياذ بالله.

فهذه الأحاديث وغيرها كلها تدل على تحريم الاستهتار بدماء المسلمين حتى وإن لم يكن الشخصُ قاصداً فكيف إذا كان قاصدا، ونحن وللأسف نعيش في هذا الزمان في عصر هذه الفتن التي حمل المسلمون السلاح على بعضهم، بل حتى وصل إلى أن القاتل والمقتول من المسلمين كلٌ منهما ما يدري فيما قُتل والعياذ بالله، وهذا من التساهل في عدم الوقوف عند حدود الله ﷻ وعند تعاليم الشرع التي حرمت مثل هذه الأمور، وكان التشريع الإسلامي أحرص ما يكون على حفظ أمن المسلمين ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، وسد جميع الذرائع التي تؤدي إلى مثل هذا.

وهذه الأحاديث التي بين أيدينا كلها تتحدث في هذا المعنى الذي أشرنا إليه، في هذا الحديث الذي معنا .

يقول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»

قوله: "فليس منا" هذه من ألفاظ الوعيد، وهذا دليلٌ على أنه كبيرة من الكبائر، والمعنى ليس على طريقتنا ولا على منهجنا ولا متبعاً لما نحن عليه، ونحو ذلك من احتمالات ذلك المعنى.

بل إن بعض أهل العلم وهو الأولى وهو ما رجحه سفيان بن عيُينه-رحمه الله تعالى وغيره-، قال: "إن الأولى إطلاق لفظ الخطر من غير تعرفٍ لتأويله ليكون أبلغ في الزجر".**(١٦١)**

يعني لا نقول أنه ليس منا ولا على طريقتنا وليس على منهجنا وليس على، وإنما نحكي الحديث كما أخبر النبي ﷺ أن من حمل السلاح على المسلمين فليس منهم، وهذا أبلغ في الزجر، والنبي عليه الصلاة السلام هو أدرى بما يقول، وأدرى بمراده عليه الصلاة والسلام، ولو أراد خلاف هذا اللفظ فليس منا لبينه عليه الصلاة والسلام.

وإنما حمل بعض العلماء هذا الحديث على ما سبق من معنى ردا على بعض الغُلاة الذين غلوا في إثبات ظاهر ألفاظ الحديث، وفسروه بأن من حمل السلاح على المسلمين فقد خرج من الملة كلياً.

وليس هذا مراد النبي ﷺ كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث؛ لأن القتال قد يقع بين المؤمنين، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ

(١٦١)

إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]

فدل ذلك على أن قوله فليس منا ليس معناه أنه خارج من الملة ولكنه من ألفاظ الوعيد التي يُحذر بها من يجهر بمثل هذه الجريمة النكراء وهي حمل السلاح على المسلمين ولا شك أن إبقاء اللفظ على إطلاقه كما أخبر النبي ﷺ أبلغ الزجر من أن ينال الإنسان أو يقع في شيء من هذه الكبائر.

ومن المعلوم أن عبارة فليس منا هذه من العلامات التي يدلل بها أنها ذنب من الكبائر، ولذلك جاء في تعريف العلماء في حد الكبيرة أنها: "ما جاء فيه وعيدٌ بنارٍ أو لعنة أو حد أو ليس منا" فعبارة ليس منا تُطلق على من ارتكب كبيرة، يعني أن هذا الذنب الذي جاء الوعيد فيه بليس منا، دليلٌ على أنه من الكبائر التي حذرنا منها النبي ﷺ.

والمعني بهذا الوعيد هو من حمل السلاح على المسلمين بغير حق، ولكن من حمله على البغاة مثلاً وعلى الجناة فلا يدخل في هذا الوعيد، ولذلك في قوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ*إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات:٩-١٠].

وقد جاءت نصوصٌ كثيرة دالة على هذا الموضوع وهو تحريم الدماء بين المسلمين وتعظيم حرمة دم المسلم منها على سبيل المثال في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣].

ومثل هذا الوعيد الشديد ما جاء إلا للدلالة على عظيم حرمة دم المسلم عند الله سبحانه وتعالى، وضرورة تحجم المسلمين عن التساهل في سفك دماء المسلمين مهما كانت الأسباب.

نعم إذا كانت هناك جناية تستحق القتل والقصاص فعن طريق القضاء النقي وعن طريق أولي الأمر الذين يقيمون الحدود التي شرعها الله سبحانه وتعالى وليس للمسلم أن يأخذ حقه أو أن يقيم حداً دون العودة إلى القضاء وولاة الأمر مخافة أن تنقلب الأمور إلى فضوى تُسفك فيها الدماء، ويسود الثأر .

ومن الآيات في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[المائدة:٣٢] .

وجاء أيضاً في النصوص قول النبي ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون عند الله من إراقة دمٍ مسلم**»**(١٦٢)**وهذا دليلٌ على عظيم إثم من تجرأ على سفك دماء المسلمين بغير حق؛ كما هو حاصل للأسف ممن يزعمون الجهاد وهم يقتلون المسلمين بغير حق ، وهذا من علامات الفتن، وأننا في آخر الزمان الذي يكثر فيه الهرج ويقتل المسلم أخاه لا يدري القاتل فيما قتل ولا المقتول فيما قُتل والعياذ بالله.

وكذلك جاء عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال المسلم في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً**»**(١٦٣)**، يعني لا يزال له رجاء وله أمل وله خير ما لم يُصب دماً حراما، لأن الدماء لا يغفر الله فيها إلا بالقصاص عند الله سبحانه وتعالى نسأل الله العفو والسلامة.

---

(١٦٢)

(١٦٣)

من فوائد هذا الحديث:

أولا: تعظيم الإسلام لحرمة دم المسلم وهذا ظاهر في هذا الحديث.

ثانيا: تحريم الاعتداء بين المسلمين وسفك الدماء المعصومة، هذا فيه وعيد شديد وبيان لتحريم الاقتتال بين المسلمين وسفك الدماء المعصومة وهذا الوعيد كافٍ في الرد عن هذه الجريمة النكراء.

ثالثا: تحريم إخافة المسلم وإدخال الرعب عليه وإن لم يكن قتال.

رابعا: تحريم المباح إذا كان سبباً إلى محرم؛ فبعض الأمور قد تكون مباحة ولكنها تحرم لا لذاتها، وإنما لما يترتب عليها من حرام، ومن ذلك حمل السلاح في مجامع الناس وخاصة إذا لم يكن مؤمَّناً ولم يكن هناك حاجة.

الحديث الثاني: عن أبي موسى الأشعري –رضي الله تعالى عنه– عن النبي ﷺ قال: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»، فهو طريق أخرى كسابق للحديث الأول، ومعناهما واحد.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة –رضي الله تعال عنه– عن النبي ﷺ قال: «**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار**»

هذا الحديث عند الإمام البخاري، فيه فائدة ولطيفة إسنادية، وهي إبهام محمد في أول السند وهو محمد بن يحي الذهلي وكان بينه وبين الإمام البخاري كلامٌ كثير حتى كان الذهلي يُحذر من تلقي العلم عن البخاري ويُحذر الولاة وطلبة العلم من أن يسمعوا للبخاري، وكلما انتقل البخاري إلى بلدٍ لإسماع حديث النبي ﷺ يكون الخبر والتحذير قد سبقه وذلك بعد الخلاف في مسألة اللفظ بالقرآن حيث إن البخاري كان يقول: " لفظي بالقرآن مخلوق" والذهلي ينكر ذلك، ورغم احتدام الخلاف بينهما إلا أن البخاري لم يترك التحديث عن

الذهلي والأخذ عنه، والخلاف الذي حصل بين الإمامين هو الذي حمل البخاري على تأليف كتابه المشهور "خلق أفعال العباد" فحينما ظهرت المعتزلة نادوا بأن القرآن هو كلام الله المخلوق، وآذوا المسلمين وحملوهم على هذه المقولة وهذه البدعة الشنيعة وأوذي في ذلك الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– وضرب وسجن هو ومن معه لأنهم أنكروا هذه البدعة الشنيعة فأظهر الله السنة وقمع البدعة فكان من علامات أهل السنة أنهم يقولون القرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوق.

فلما ظهرت السنة وقُمعت البدعة كان هناك من المبتدعة من يُحاول الاستمساك بهذه البدعة والدعوة إليها بصفة غير مباشرة فقد كانوا يُنادون ويقولون: ألفاظ اللفظ بالقرآن مخلوق، وكان الذهلي يردد عن الإمام أحمد قوله: "من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع" وذلك لأن عبارة لفظي بالقرآن عبارة مجملة تحمل معنى صحيحاً وتحمل معناً باطلا، والأصل المنع منها وعدم الكلام فيها إلا ببيان ما يعنيه من هذه اللفظة، ومعنى ذلك حينما يقول: اشتقت لفظي بالقرآن مخلوق، فهو اللفظ يحتمل المخلوق ويحتمل فعل العبد، فإذا قلنا أن يحتمل الملفوظ قيل القرآن، القرآن ملفوظٌ في ألفاظنا وهو كلام الله ﷻ غير مخلوق.

أما ألفاظنا نحن فهي من أفعالنا وهي مخلوقة ، فصارت المسألة فيها محتملة فرأى الإمام أحمد أن يمنع بهذه وتلك نهائياً وذلك لأن المبتدعة من الجهمية وغيرهم أرادوا أن يلتفوا على هذه القضية فكانوا يُنادون ويقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ويعنون باللفظ الملفوظ أي القرآن فلذلك منع منها الإمام أحمد–رحمه الله تعالى– وغيره من الأئمة.

لكنه بعد أن ظهرت السنة واستبانت الحقيقة وظهر الحق كان هناك ممن غلا أيضاً من أهل السنة حتى كان يقول بأن ألفاظنا التي هي أفعالنا بالقرآن ليست مخلوقة، وهذا غلو.

فكان الإمام البخاري –رحمه الله تعالى– يُنكر على هذه الطائفة ويقول ألفاظنا هي من أفعالنا وأفعال العباد مخلوقة وبناءاً على ذلك ألّف كتابه خلق أفعال العباد، وهذا موافق لقول الإمام أحمد–رحمه الله تعالى– لكن الإمام البخاري وجه بأُناسٍ غير الذين كان يواجههم الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– فالإمام أحمد كان يواجه المبتدعة والجهمية الذين يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ويعنون الملفوظ.

والإمام البخاري وهو من تلامذة الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– ووجه بغلو في الطرف الآخر وهو أن هناك من الناس من يقولون ألفاظنا التي هي أفعالنا بالقرآن ليست مخلوقة فلذلك أنكر عليهم الإمام البخاري، وألف كتاب خلق أفعال العباد، وأوذي وأمتحن بسبب هذه المقولة.

ومما ذُكر في سير أعلام النبلاء، أن رجلاً أتى إلى الإمام البخاري في أيام هذه المحنة فقال يا أبا عبد الله ماذا تقول في القرآن فأعرض عنه، وكرر عليه السؤال مرة أخرى فأعرض عنه البخاري وكرر عليه مرة ثالثة، فقال: "القرآن كلام الله غير مخلوقٌ وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة"**(١٦٤)** يعني كونك تسأل هذا السؤال من أجل الاختبار وامتحان الناس فهذه طريق لا يجوز سلوكها، فبعض الناس لا يسأل إبهاماً وإنما يسأل من أجل تصنيف العبد، وهل هو يقول بهذا أو هذا من أجل تصنيفه.

وعودا إلى ما نحن بصدده، فخلاصة الكلام السابق هي أن ثمة فرق بين اللفظ والملفوظ وبين الكراهة والمكروه، وبين الكتابة والمكتوب، وبين التلاوة والمتلو، فالقراءة والتلاوة والكتابة هذه كلها مخلوقة لأنها أفعال عباد، أما ألمتلو والمقروء والمكتوب فهو كلام الله، غير مخلوق، وهذا هو خلاصة الموضوع الذي أشرنا إليه.

---

(١٦٤)

واللطيف في قصة إيذاء الذهلي للبخاري رحمهما الله أن الذهلي يُعدّ شيخا للبخاري، ولم يحمله إيذاؤه له على ترك التحديث عنه، وإن كان يُبهمه فيقول: حدثنا محمد ولم يُصرح باسمه كاملاً، فقيل في ذلك أنه روى عنه في ورعه ولم يترك التحديث عنه وأبهمه حتى لا يُظن بالبخاري أنه يوافق الذهلي فيما كان يدعوا إليه ويتكلم فيه، فجمع بين الحسنين، فحدّث عنه ورعاً ولم يمنعه ذلك الإيذاء من التحديث عنه ولم يُصرح باسمه وإنما أبهمه حتى لا يُظن بالبخاري موافقته على رأيه في مسألة النقض والعلم عند الله ﷻ.

يقول الإمام البخاري –رحمه الله تعالى–: حدثنا محمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همَّام: سمعت أبا هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار**».

قوله: «**لا يشير**» "لا" هنا تحتمل أن تكون نافية أو ناهية، لكن إثبات الياء فيها يكفي دلالة على أنها نافية، فلو كانت ناهية لحذفت الياء، فيُقال: " لا يُشِرْ" والنفي هنا يُراد به النهي؛ ليكون أبلغ من النهي الصريح لاشتماله على النهي وزيادة.

قوله: ((**لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح**)) هذا يدل على تحريم مجرد الإشارة بالسلاح وإن لم يرده، هذا النفي أو النهي على مجرد الإشارة بالسلاح حتى وإن كان ما يرد وغير ذلك، وعلل ذلك بقوله: ((**فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده**)) جاء ينزع بالعين المهملة، وجاءت ينزغ بالغين المعجمة، ومعنى ينزع يعني يقلعه الشيطان من يده فيرمي به، إما بيده فيُحركها أو بقلبه فيحمله على أمرٍ يؤدي إلى إيذاء المسلم بذلك السلاح، إما بإشغال قلبه عن سلاحه فيقتله من غير قصدٍ وإما أن يُزيّن له أن يضرب بهذا السلاح، فرواية "ينزع" تحتمل ثلاثة معان: إما أن الشيطان يتصرف في يد العبد فيُحركها ويضع أصبعه على الزناد مثلاً فتثور الطلقة فتخرج.

وإما أنه يُحرك قلبه فيشغله عن سلاحه فينطلق السلاح أيضاً، وإما أن يقذف في قلبه شرّاً فيُزين له إطلاق السلاح فيُصيب المسلم، وكلها تؤدي إلى سفك دم معصوم، ولذلك جاء النهي الصريح في ذلك.

أما "ينزغ بالغين المعجمة" فتحتمل أن يكون المعنى تحريش الشيطان بينهما، فيشحن بعض المسلمين على بعضهم بالفساد ويُغري بينهم حتى يقع بينهم القتال، وذلك كما في قول الله ﷻ: ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾، يعني: حمَلهم على إيذاء أخيهم وأفسد بينهم، وكما في قوله ﷻ: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

فهذه الآيات كلها تدل على معنى نزع الشيطان أونزغ الشيطان وكلها مآلها إلى سفك دمٍ معصوم، وهذا ما جاء التحذير الصريح والشديد منه.

قوله: ((**فيقع في حفرة من النار**)) وهذا من الوعيد الشديد، يعني إذا قتل أخاه ولو لم يكن يقصد قتله، لمخالفته نهى النبي ﷺ في عدم الإشارة عليه بالسلاح، وهذا التوجيه النبوي الشريف من قبيل سد الذرائع التي قد تؤدي إلى شيءٍ من إزهاق النفوس والدم الحرام من غير حق، وهذا ظاهرٌ جداً في هذه العبارة.

من فوائد الحديث:

أولا: شدة حرص الإسلام على سلامة المسلم وحرمة دمه.

ثانيا: النهي عن الإشارة إلى المسلم بالسلاح مجرد إشارة وإن كان على سبيل الدعابة أو المزاح أو التخويف فكله محرمٌ ولا يجوز ومنهيٌ عنه في صريح حديث النبي ﷺ.

ثالثا: حرص الشيطان على استغلال الفرص للإيقاع بين المسلمين بسفك الدماء، وهذا أمر الله جلي في هذا الحديث.

رابعا: يمكن أن يُستفاد من الحديث أيضاً، النهي عمّا ما يُفضي إلى المحذور وإن لم يكن المحذور محققاً، يعني أحياناً قد يمزح الإنسان ويقول السلاح لن أطلقه وإن لم يكن المحذور محققاً سواء كان ذلك في جدٍ أو هزل.

فالأمر المباح الذي قد يكون سبباً إلى محرم فإنه يُمنع منه سداً للذريعة المحرمة.

خامسا: من فوائد الحديث ما ذكره القاضي أبو بكر العربي-رحمه الله- قال: "إذا استحق الذي يُشير بالحديدة اللعن فكيف الذي يُصيب بها، إذا كان مجرد الإشارة بالسلاح يترتب على ذلك هذا الوعيد وهذا اللعن من الله ﷻ ومن الملائكة فكيف الذي يوقع السلاح بالمسلمين"**(١٦٥)** قلت: ولا أدري ما هو جواب الذين يتقربون إلى الله في زماننا هذا بسفك دماء المسلمين، وأين هم من مثل هذه المتون عن النبي ﷺ وهي أحاديث صحيحة صريحة مُجمعٌ عليها متواترة عن النبي ﷺ، ولكنه -والعياذ بالله- الجهل والهوى، فإذا اجتمع الجهل بالسنة وبالأحكام والهوى فتلك المهلكة والفتنة،نسأل الله العافية والسلامة.

الحديث الرابع: حدثنا علي بن عبد الله: حدثنا سفيان قال: قلت لعمرو: يا أبا محمد: سمعت جابر بن عبد الله يقول: مرَّ رجل بسهام في المسجد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أمسك بنصالها**». قال: نعم.

ش: هذا عمرو بن دينار يسأل جابر بن عبد الله أو سفيان يقول: قلت لعمرو بن دينار: يا أبا محمد هل سمعت جابر بن عبد الله يُحدث عن النبي ﷺ يقول: مر رجلٌ بسهامٍ في مسجد فقال ﷺ أمسك بنصالها، قال نعم. يعني قال عمرو لسفيان: نعم سمعت جابراً يقول هذا عن النبي ﷺ.

قوله: ((مر رجلٌ بسهام)) والسهام من لفظها هنا دليل على أنها قريبة، بل وفي المسجد، وجاء في صحيح مسلم أنه يتصدق بهذه السهام على المسلمين.

---

(١٦٥)

قولهﷺ: «**أمسك بنصالها**»، النصل هو حديدة السهم، يعني الجزء الحاد منه الذي يمكن أن يؤذي المسلمين، يُجمع على نُصولٍ وعلى نِصال.

قوله: " **قال نعم**" يعني قائله عمرو بن دينار جواباً على سؤال سفيان كما تقدم.

وفي الرواية المتقدمة في كتاب الصلاة ليست فيها هذه الزيادة، وهنا فائدة حديثيه وهي من اللطائف، أنه هل يُشترط في العرض على الشيخ أن يُثبت الرواية ب"نعم؟ الجمهور على أنه لا يلزم التصريح بذلك، وأهل الظاهر يقولون: يلزمه، ولاشك أن التصريح أكمل لكن الراجح هو قول الجمهور والله أعلم.

الحديث الخامس: حدثنا أبو النعمان: حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن دينار، وهناك أبهم وهنا صرح بأنه عمرو بن دينار عن جابر: **أن رجلاً مرَّ في المسجد بأسهم قد بدا نصولها فأمر أن يأخذ بنصولها، لا يخدش مسلماً.**

ش: هذه طريقة أخرى من حديث جابر عن عمرو بن دينار -المتقدم- والأول عن سفيان وهذا عن حماد بن زيد، وفي هذه الرواية تصريح بالعلة التي من أجلها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقبض نصول السهام، وهي خشية أن تخدش أحدا من المسلمين، وإذا كان الخدش بهذا القدر من العظم فكيف بما هو أبلغ من أنوا الإيذاء.

قوله: ((**أن رجلاً مر في المسجد بأسهم**)) أبهم اسم الرجل هنا سترة عليه، كما هي عادة المحدثين وأهل السنة؛ حيث إنه إذا لم يكن في ذكر اسم الشخص فائدة فإن الأصل أن يُبهم ستراً عليه، كما أبهم النبي ﷺ صاحبي القبرين الذين مرّ عليهما ﷺ وقال: ((إنهما يُعذبان وما يُعذبان في كبير)). (١٦٦)

وكما أُبهم الأنصاري الذي اعترض على حكم النبي ﷺ في قصة سقي حائط الزبير، فقال للنبي ﷺ "إنه ابن عمتك" فلم يُعرف هذا الأنصاري ولم يُذكر اسمه، وتعمّد الرواة إبهام اسمه ستراً عليه، كذلك الثلاثة الذين تقالّوا عبادة النبي ﷺ من شدة حرصهم على العبادة،

(١٦٦)

فقال أحدهم: "لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش" فعلم النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه. فقال: ((**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)).(١٦٧)

والشاهد أن الرواة أبهموا أسماء هؤلاء الثلاثة لأنه لا تترتب فائدة على ذكر أسمائهم؛ بل الأعمال التي ذكروها وإن كان دافعها الحرص على العبادة والتقرب إلى الله ﷻ إلا أنها فيها مخالفة لهدي النبي ﷺ لذا جاء إبهام هذه الأسماء وعدم التصريح بها.

قوله: ((**أسهم**)) يعني قليلة، كما جاء في الرواية السابقة.

قوله: ((**فأمر أن يأخذ بنصولها، لا يخدش مسلماً**)) فلا يكون الجزء الحاد منها ظاهراً بادياً مخافة أن يؤذي المسلمين .

والخدش هو أول الجرح، فإذا كان خدشه للمسلم من غير قصدٍ فيه إثم، فكيف بالقتل، وهذا من الاحتياط في حفظ دماء المسلمين، حتى القليل منها غير المتعمد كالخدش، فما فوقه من باب أولى.

من فوائد الحديث:

أولاً: التأكيد على تعظيم دم المسلم قليله فضلا عن كثيره .

ثانيا: التأكيد على حرمة المسلمين ودمائهم، وتحريم أذيّة المسلم ولو على غير قصد.

ثالثا: سدّ كل ذريعة تؤدي إلى أذية المسلمين، فكل أمرٍ يحتمل أن يترتب عليه إيذاء المسلمين فهو ممنوعٌ ,عن كان في أصله مباحا.

رابعا: حجية سد الذرائع، القاعدة الكلية المعروفة، فهذا الحديث مثالٌ تطبيقيٌ على سد الذرائع .

خامسا: فيه أيضاً دليلٌ على جواز إدخال السلاح إلى المسجد إذا كان لغرض، بشرط الاحتياط والتأمين.

---

(١٦٧) رواه مسلم- كتاب النكاح- باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ١٤٠١(٢/ ١٠٢٠).

الحديث السادس: حدثنا محمد بن العلاء: حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبلٌ، فليمسك على نصالها، أو قال: فليقبض بكفه، أن يُصيب أحداً من المسلمين منها بشيء**».

ش: هذا الحديث دليلٌ على ما سبقت الإشارة إليه من التحرز من أذية المسلمين مجامعهم كالمساجد والأسواق وأماكن الاحتفالات في الأعراس والأفراح وغيرها.

وهذا الحديث ذكره الإمام البخاري-رحمه الله تعالى- في كتاب الصلاة،باب المرور في المسجد، إشارة إلى فائدة وحُكم فقهي.

قوله: ((**إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا**)) هذا يقاس عليه كل أماكن اجتماع المسلمين.

قوله: ((**ومعه نبلٌ**)) النبل: هي السهام العربية، وهي مؤنثة، ولا واحد لها من لفظها.

قوله: ((**فليُمسك على نصالها أو قال فليقبض بكفه**)) والنِّصال هي مواضع الأذى منها وهو البري الحديدي الذي يمكن أن يُؤذي المسلمين، فأُمر أن يمسك بنصالها، يعني لابد منتأمين هذا السلاح بحيث يأمن الحامل له والمار به من أن يؤذي أحد من المسلمين.

قوله: ((**أن يُصيب أحدٌ من المسلمين منها بشيء**)) وهذا تعليلٌ للأمر بتأمينها مخافة أن يؤذي المسلمين.

وأحاديث هذا الباب تفيد بمنطوقها ومفهومها حماية المسلمين ودمائهم بسد جميع الوسائل التي قد تتسبب في إراقة دمائهم أو أذيتهم على أي وجه، ورغم ذلك وللأسف نُلاحظ في أيامنا وعصرنا الآن استهتار الناس بهذه التوجيهات والإخلال بمقتضاها، فتراهم يتبجحون بحمل السلاح في مجامع الناس.

وإذا كان هذا الوعيد الشديد في هذه النصوص في إيذاء المسلم فيما دون القتل وفيما هو بغير قصدٍ منه فكيف والعياذ بالله من تعمّد القتل وقصده وأراده وسعى إليه فلا شكّ أن هذا من أعظم الجرائم، نسأل الله العفو والعافية.